ابن وحيــد

اسم الرواية: **ابن وحيد**

اسم المؤلف: **فؤاد محمد**

تدقيق لغوي: **مكرم تادرس**

تصميم الغلاف: **عبد الرحمن محمد**

تنسيق داخلي: **مينا تادرس**

رقم الإيداع: **٢٠٢٠/٢٠٩٨٢**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٦٣٥**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

فـؤاد محمـد

ابن وحيـــد

إبـهـار
للنشر و التوزيع

إلى والدتي الحبيبة الغائبة عن العين الساكنة في القلب..

إلى الهُيام والعشق الأبدي..

أهدي إليكِ روايتي الأولى يا بيت الدعاء وبركة البيت، يا مركز الحنية ومُهجة الفؤاد.

رحمة الله عليكِ يا أجمل من رأت عيناي.

وحشتيني

إهــداء

إلى كل من داعبه الحظ وخانه، وأدرك خطوات النجاح وانزلق،

وشارك في خططه البسيطة وتعثر، وعافر حتى بكى وتمزق، لا تقلق.

سيعوضك الله وسيجبر خاطرك وستأتيك الفرحة من حيث

لا تحتسب، فباليقين تتحقق المعجزات.

القطعة الأولى

الحياة!

لم يكن لدي فكرٌ لها عندما كنتُ أحبو، ولم يكن لي قانع عندما أدركتُ معناها التام، ولم أجدها تبتسم إلا حينما وجدتُ لها الخيال، وأيقنت حينها أن لنا في الخيال حياة.

نختار عالمنا بأيدينا دون قيود. نجيز على قوانين هذا العالم الزائف بكل هدوء. نعين أنفسنا على متاعبها كلما اقتربنا أكثر من الخيال. نتمكن من استعمال منطق صائب يعبر عن فطرة الحياة، مما يفتح أعيننا لندرك أننا لازلنا داخل ذلك الواقع الملعون.

القدر!

أبتسم حينما أنظر إلى نفسي في المرآة لأجد شخصًا آخر لا أعرفه! من هذا الذي تحولت إليه؟! أشعر وكأنني منتمٍ إلى جماعة الإخوان بذقني الطويلة وهذا الشعر الجاف، هكذا كانوا يقولون قبل أن تتحول إلى موضة! «محمود وحيد» إخوان! ياللهول! ولكن لا غبار على أن أتسكع بين الطرقات بمنظري هذا، فاللحية الكثيفة أصبحت موضة حتى وإن كان شكلها قميء.

غريبة تلك اللحية بأنواعها والمعتقدات التي حولها، فقد وجدْت نفسها حائرة بين الإهمال والنظافة الشخصية، بين اكتمالها وغير المتساوية، بين التطرف والموضة.

الواقع!

أنا تائه، ضائع، مضطرب، مريض، متعب، شارد الذهن، غير موجود. أنا الحقيقة رغم تزييفكِ لها! أنا من كنتِ تقولين عنه فارس أحلامك! ربما كنت الحصان الأبيض في نظرك وليس الفارس. ربما لم أكن شيئًا في خيالك.

الكلمة!

ربما في بعض الأوقات تنازلت عن إطلاق الرصاص متراجعًا إلى الخلف، ليس للجبن ولا للضعف، ولكنني تعودت على ذلك منذ الصغر. تعودتُ على أن أنتقي كلامي أثناء الحديث مع الآخرين وألا أفتعل المشكلات، تعودت على أن أداوي الجراح لا أن أكون سبباً فيها. تعودت على أن أتنازل عن معظم حقوقي في سبيل إسعاد الآخرين. مغفلٌ، أليس كذلك؟!

الحب!

أضحك كثيرًا حينما أتخيلها ترتوي من جسده ويغدقها من نبع الحياة.

****

- واد يا «محمود».. تعالَ يا حبيبي عايزاك.

حبيبي!

ليس من عادة والدتي أن تناديني هكذا إلا في حالة واحدة أعرفها جيدًا، ولذلك أتمنى وبشدة ألا تكون ما أفكر فيه، لأنني قد ضقتُ ذرعًا.

بعد أن جئتُ لها صانعًا ابتسامة بلهاء وعقلًا لا يريد سوى الخروج بسلام من تلك المناقشة التي لن تسمن ولن تغنِ من جوع.

- عندي ليك خبر حلو!

ها قد بدأنا للتو، وها قد بدأت السيمفونية في العزف.

- امبارح بالصدفة وأنا بجيب الخضار لقيت خالتك «حُسنية» بتقولي من غير ما أقولها حاجة خالص إنها شافت في عمارة جارتها بنوتة زي القمر، ولما سألت عليها طلعت بنت ناس طيبين جدًا، فـ أنت إيه رأيك نروح نشوفها؟!

والدتي العزيزة إذا وجدت صنمًا من أيام الجاهلية فستجعله يبحث معها عن فتاة لي!

لم أفعل شيئًا سوى أن أعطيتها جواب كل مرة بذات الوتيرة البلهاء.

- يا ماما قولتلك ١٠٠ مرة مش هتجوز جواز صالونات ولا عايز أقابل حد، متحسسنيش إني عانس بالله عليكي.

- ياواد عايزه أشيل عيالك قبل ما أموت.

- ربنا يديلك طولة العمر، بس دي حياتي ودا قراري.

رمقتني بنظرة حادة تلك التي تفعلها مع بائع الدجاج حينما يعطيها سعرًا ليس على هواها، فوجدتُ أن الهرب خير وسيلة لتجنب ما سيحدث لاحقًا، وقبل أن تضربني على كتفي ومن ثم تتحول إلى الرجل الأخضر،

قفزتُ قفزة واحدة من مكان مجلسي، ثم ركضتُ إلى غرفتي مبتعدًا عن أنظارها.

لِما تريدين مني أن أذهب إلى الجحيم بكلتا قدميَّ؟! لِما تريدين مني أن أغوص في شيءٍ أتمناه للغاية ولستُ بقادرٍ عليه؟! هل تعلمين حجم الصعاب التي ستحدث حينما أتطرق إلى موضوع كمثل هذا؟! هل سمعتِ جيدًا عن حالات الطلاق المتعددة ولِما يحدث من الأساس؟! إنها الأموال يا سيدتي! إنها من تحكم كل شيء.

زواج المصلحة هو السائد في الوقت الحالي، ومن يخالف تلك القاعدة المقيتة عليه أن يدخل دوامة الحب كي ينجرح فيصمت، يتألم فيبكي إلى أن تأتي اللحظة الحاسمة ليستمتع بزوجة صامدة صالحة مدى الحياة أو اكتئاب حاد وعواقب جسيمة، فالفرصة لا تأتي مرتين في زمن تسوده أعراف كثيرة تبطئ من زواج حلال، والواقع دائمًا ما يفرض أشياءً كثيرة تخدم في بعض الأحيان وتقتل في البعض الآخر، والسعادة لا تأتي إلا بالحب المبني على العهد والوفاء.. لنرى كيف سنجمع الأفكار حتى لا نتشتت ونموت من فرط الاختناق.

الزواج!

الرأي الأول يقول بأنه شيء سخيف لا يسمن ولا يغنى من جوع، ولا يحتاج إلى أي شيء سوى أن تمتلك له المال الوفير، أما الثاني فيتوغل داخل بوتقة مضطربة لا تفهم منه شيئًا، أحيانًا يريد وفي أوقات أخرى يتمنَّع، يتمنى بشدة حفظ النفس والبعد عن الفاحشة ولكنه ينصاع إلى النمط المعتاد بأن المسئولية ستكون كبيرة للغاية، وبالتالي لا تفهم ماذا يريد سوى

أنه مضطرب لا قرار له ولا يحزنون. والثالث كان يتلاعب بفتيات كثيرة، يرقص مع هذه، ويتواعد مع تلك، ويغني مع هؤلاء، حتى ضاقت به الدنيا وأصبح فاقداً للثقة في ذاته قبل أن يثق في شريكة حياته، والرابع يتأمل في "كيف بدأ الخلق!"

الآراء كثيرة والاضطرابات أكثر، ولا نحتاج سوى أن نتريث ونهدأ حتى نعرف ونعلم ما هي الخطوة القادمة وكيفية التعامل معها.

القصة تكمن في المقدرة بصحبة المنطق في حراسة العقل، والوعي مستيقظٌ في ضيافة الواقع، مبتعدٌ عن تلك الأحلام المستحيلة، فالواقع دائمًا ما يترقب المنطق في صناعة المقدرة المنطقية المبتعدة عن الأحلام المستحيلة مستخدمًا العقل الواعي كي يحقق معادلة الزواج، ولذلك لا تغفل قبل أن تُقدِم على تلك الخطوة أن تكون على أرض صلبة من لزوم واحتياجات، ولا تتمادى بتلك الأشياء التي تقول عنها أحلاماً ستتحقق إلا إذا كانت لديك الخطة الكافية والمرجعية الناجحة في إثبات ذلك، ولا تتوانى في ضياع تلك الفرص السهلة متشبثًا بمقولة أن "حياة العزوبية أفضل بكثير"، ولا تستيقظ في الغد إلا وأنت تعرف على الأقل ما الطريق الذي ستسير عليه؟ ولا ترسمه مفروشًا بالوَرد ولا حتى بخط مستقيم، لأن الحياة يا صديقي قاسية ومؤلمة للغاية.

لا تعتقد ولو لبرهة أن المال هو كل شيء، فهنالك من العهود والوفاء والصمود والكفاح وتلك السمات التي ستظل خالدة رغم كل غاشم متطرف أحمق يرى ذلك بالأفلام والمسلسلات ليس إلا، وما الزواج إلا أداة بيع وشراء فقط.

حاربوا من أجل الحب، ولتجعلوا تلك الذكرى خالدة في ميادين العشاق..

غوصوا في أعماق الغرام، ولتنجبوا لنا جيلًا واعيًا يتغذى على البساطة محلقًا في الآفاق.

تأملوا جيدًا ما يحدث اليوم وكيف سيكون الغد، ولتبتعدوا عن كل ما يعرقل الحياة وما ينساق. لذلك علينا أن نتأنّى ونفكر جيدًا عندما نُقبل على الطرف الآخر، فالاختيار الحسن هو نعمة من عند الله وبداية معادلة ناجحة لها ثقلها في المستقبل، فيكفي أن تقول لأولادك ومن بعدهم أحفادك أن تلك هي زوجتي، فتقابل ذلك بالمِثل في حنان دافئ تتغلله مشاعر دفينة وعزة وحب. افتخروا عند الوصول لتلك المرحلة. افتخروا وبشدة.

****

- أستاذ «محمود» حصتك هتبدأ كمان ٣ دقايق.
- حاضر يا فندم.

اعتلاه الغضب كالعادة حينما قلت له أفندم، فهو لا يحبذها ولكنه لم يقل لي ذلك يومًا.

«شاكر أفندي زوبع»!

مدير مدرسة «الزوبعة» الخاصة وحاصل على بكالوريوس التجارة رغم شغفه بكلية الإعلام، وهذا ما يؤكد على أن الإذاعة المدرسية هي أهم ما يميز المدرسة، ولن أتحدث كثيرًا عن الأنشطة الرياضية والثقافية والعلمية لاهتمامه الزائد بتلك الأشياء، وهذا ما يثير دائمًا عدة تساؤلات في مخيلتي، فلم أرى مديرين يتعاملون بهذا الشكل المبالَغ فيه مع تلك الأشياء المهدَّمة في بعض المدارس الأخرى!

تلك الدقة والسرعة في توزيع الجوائز وإقامة الحفلات دائمًا مع بداية العام الدراسي ونهايته! حتى إنه يكون حكم اللقاء في المباراة النهائية ببطولة المدرسة لكرة القدم!

هناك سر غريب وراء تلك اللافتات الجميلة بكل تأكيد، وكأنه يسعى جاهدًا في تحقيق شيء ما داخلي لم يفعله وهو صغير، أو لم يحالفه الحظ بأن يبرز ما لديه، أو ربما لم يبدي أحد الإعجاب بمواهبه الخاصة، ولكنني دائمًا وأبدًا أحترمه كثيرًا جراء ما يرسمه على أوجه الطلاب من ابتسامات وعرفان.

ها قد بدأ اليوم الخامس من العام الدراسي الجديد، وانتهينا أخيرًا من قصة استلام الكتب ومن تعريفنا لبعضنا البعض، وها أنا على وشك أن يناديني جيل جديد بمدرس التاريخ «محمود وحيد».

التاريخ!

اكتشافات ومعانٍ مُخبئة، وجفون لا تمل وعيون لا تنام من أحداث ومغامرات مليئة بالغموض ومتشبعة بالإثارة. عالم مفتوح على مصراعيه بلا حدود، الشرق والغرب، الشمال والجنوب.. انفتاحٌ بين الحضارات وحرية ودفاع.. حكايات من عصور قديمة تجعلك منبهراً وبشدة وفي حالة ذهول تام.. سياسات وأشكال مختلفة من الأحكام والمعتقدات.. سلطات مشروعة وطبقات موضوعة وحكام تقود.. خطط وإستراتيجيات خاصة بكل وزير كان أو رئيس أو حتى مجرد مسئول.. انكسارات وهزائم تقابلها انتصارات وسرور.. المؤرخون ومعتقداتهم الكثيرة، فتجد من يجد أن تلك المعاهدة انتصارًا لوطنه إلا أن الآخر يراها شرًا مستطيرًا وفي المنتصف تجد من يوازن ويجمع بين هذا وذاك، ولو ظللنا لبعد غدٍ فلن نوفي بحق كلمة بحجم التاريخ، ولكننا في حضرة منهج دراسي محدَّد ومنغلق على ذاته، وبالتالي لا يسعني سوى أن أبدأ معكم بالحكايات التي سنعيشها في هذا الفصل الدراسي الأول.

هزوا رؤوسهم بالموافقة ولكن بلا حماس، وكأنني أعزف مقطوعة سيئة للغاية وقد حان وقت الرحيل.

تلك المقدمة دائمًا ما أقولها مع بداية كل جيل، حتى أجعلهم منتبهين مستيقظين مبتعدين أكثر عمّا بداخل المنهج، وكأنني في حضرة خدعة بسيطة من جانبي كي لا يتوقف عقلهم على استيعاب المنهج فقط، وكأن البعد عن المنهج الدراسي ولو قليلًا خطيئة وجُرم. ولكن ما اكتشفته مؤخرًا أن الجيل الحالي لم يعد يهتم بالمقدمة ولا بتلك الأشياء التي نقول

عنها أشياءً عظيمة قد ولّت، ولم يعد يهتم بالتاريخ ولا بتلك الأحداث التي بداخله، بل يدس ما يحفظه في ورقة بلهاء كي ينجح ومن ثم يتبخر ويُنسى، ولم يعد هناك شغف، بل هي مجرد مادة فقط ليس إلا، ومن فضلك قل لنا كيف ستأتي تلك الأسئلة بالامتحان. فقط الامتحان هو ما يحركهم تجاه التاريخ، أقصد مادة التاريخ.

الشغف!

عندما كنتُ صغيرًا مثلهم، كان هناك مدرس يُدعى «أحمد المنصوري» مدرس اللغة العربية ذلك الذي علمني حينها كيف تكون رجلًا ناجحًا مثقفًا ومحبوباً. ذلك الذي جعلني مؤمنًا برسالة التدريس وأن أكون مثله في يوم من الأيام.

كان لامعًا كالنجوم، بطلًا في ساحته مرتديًا ثوب العلماء وعلى جانبيه الهدوء والمنطق وأمامه كنا كالجيوش المنضبطة التي تسمع بعناية وتنفذ بدقة.

كان يحثنا على الثقافة اللغوية والفهم الجيد لا التلقين السمعي والحفظ الجامد حتى الامتحان ومن ثم النسيان.

كان يداعب المنهج كما لو كان آلة موسيقية تُعزف بعناية، ولكنها لم تكن منضبطة في بعض الأحيان للأسف، فلم يكن بقادر على تلك الحواشي والتعقيدات المبالغ فيها للمنهج، فينظر لنا في تعجب ثم يعتذر لنا مطالبًا بحفظ تلك الأشياء المقيتة.

عندما كنت أنظر له كنت أرى نفسي مكانه ولكن بأسلوبي الخاص. كنت أشعر بحماس زائد حينما يجعلني الحارس على الفصل، ومن يُصدر

صوتًا أو يُحدث شغبًا عليَّ أن أخرجه على الفور، ولكن ما كان يشعرني بالحماس ليس أنني الحارس بل أنني أقف مكانه ولكن على طريقتي.
كنت أنا القائد أمام هذا الجيش ولكن بلا سلاح، ولأنني لا أحب الإيذاء لم أكن أُخرج أحدًا من الذين يصدرون أصواتًا عالية ومن ثم لم يجعلني الحارس الأمين فيما بعد لعدم نفعي بذلك المكان، ولكنني لم أجادل أو أحزن لأن القائد لا يؤذي جيشه.
عندما كانوا يصدرون الأصوات العالية أثناء تصحيح «المنصوري» الكُرَّاس، كنت أحثهم على ألا يفعلوا ذلك حتى لا يعاقَبوا، ولكنهم لم يصغوا لأنني لم أفعلها ولو لمرة واحدة وهذا ما استنتجته فيما بعد بأن القائد الحقيقي عليه أن يعرف متى يعاقب ومتى يسامح، متى يمتاز بالشدة ومتى يلين، وهذا ما فعله «المنصوري» حينما جعل «جابر» الطالب المعروف بالحسم وأن الشغلَ شغلٌ هو الحارس الأمين، ومن ثم نظروا إليَّ وقالوا: ولا يوم من أيامك يا «محمود»!

- في هذا الترم سنتحدث عن مصر الحضارة والعالم القديم، وإذا وُجدت كلمة الحضارة فلابد لنا أن نذكر الفراعنة وكيف كانت علاقتهم ببعض الحضارات الأخرى، فسنجد مثلًا أن الوحدة الثانية تتحدث عن الحضارة المصرية القديمة وذلك بعد أن نتناول مفهوم الحضارة وأهميتها ومصادر دراسة الحضارات، على أن تكون الوحدة الثالثة حضارة بلاد العراق القديم وحضارة فينيقيا ومن بعدها حضارة اليونان والرومان.

وهنا دائمًا ما تأتي لحظتي المفضلة، وذلك عندما أنظر إليهم لأجدهم كالبلهاء ناظرين إليَّ في صمت بارزةً أسنانهم في حماقة خائفين من القادم، بلا استيعاب أو منطق، مطلقين العنان إلى الرسوب بكل ارتياحية.

صمتٌ خيم على الجميع إلى أن ابتسمتُ لهم فتبسموا وبدأت تلك الأحاديث الجانبية تأخذ شكلًا مضحكًا حتى استعدت لباقتي ووقفتُ أمامهم بخط مستقيم مشدودًا بصلابة مطالبًا إياهم بالتركيز وذلك عندما عدلتُ من لهجتي كثيرًا ونزلت إلى واقعهم أكثر، مقتربًا بشدة من أفكارهم، متزامنًا ولو قليلًا مع جيلهم.

- سيبكم خالص من اللي قولته، حد يعرف يعني إيه حضارة؟

بدأ الهدوء يعم، واختفت تلك البلاهة رويدًا رويدًا عندما بدأ العقل يفكر ومن ثم بدأت الأيادي ترتفع بنسب متفاوتة حتى وجدتُ كالعادة أن المعظم لديه إجابة حتى ولو كانت ضئيلة.

- الحضارة يا مستر يعني ثقافة الشعب واتجاهاته وأفكاره في الحياة.

قالتها فتاة ذات بشرة بيضاء لها شعر طويل حالك كالليل، فشكرتها على تلك المبادرة وانتظرت المزيد.

- التطور الطبيعي لأسلوب المعيشة والملابس والعادات والتقاليد.

شاب قمحاوي اللون ضعيف البنية قالها في تردد ولكنني طمأنته قليلًا فجلس مبتسمًا، واخترت مَن بجانبه ليعطينا إجابة جديدة، فقال بكل ثقة:

- هي ثمرة أي مجهود يقوم به الإنسان، وذلك نتيجة تفاعله مع البيئة لتحسين ظروف حياته وتعمير الكون الذي نعيش فيه.

نظرتُ إليه مبتسمًا، ذلك الذي كان يرتدي نظارة طبية، وقلت له "متى قرأت ذلك الدرس؟"

فأجاب ومِن داخله يعلم بأنني قد باغتُّه مدركًا أن إجابته تشبه الإجابة النموذجية لكتاب المدرسة، ومن هنا بدأتُ أركز معه حينما سألته عن اسمه فأجاب:

- «حامد عبد الرحمن».

بعد أن تناقشنا بكل ارتياحية وضحكنا كثيرًا مع إجابات لا تتوافق مع كلمة الحضارة، جاء دوري كي أضيف على ما قاله «حامد» وأتعمق أكثر داخل صلب الموضوع.

- إن الحضارة تبدأ من حيث ينتهي الاضطراب والقلق والذعر، فحينما يجد الإنسان الأمن، تتحرر في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع، ومن هنا يبدأ سعيه في فهم الحياة بشكل أوسع وبمفهوم مختلف ومن ثم البناء والازدهار في كافة العناصر المتاحة لكي يعم الرخاء، فهي جزء من التاريخ، ينتمي إليه الإنسان، ولكل إنسان حضارته وثقافته المختلفة ومعتقداته وقيمه وعاداته وسلوكياته وكل شيء يمكن أن يحصل عليه في مجتمع ما، وبالتالي يمكن أن نقول أن تاريخ الحضارة علم واسع من خلاله نعرف الماضي ونفهم الحاضر ونتنبأ بالمستقبل.

مقدمة بسيطة للغاية حتى يستوعبوا ما هم مقبلين عليه رغم أنني لم أقل شيئًا بعد، ولكن فلنهدأ في البدايات حتى يتزامنوا معنا ومن ثم ننتقل جميعًا لذات المركب.

- سيدنا «نوح» عليه السلام لما صنع السفينة كان يؤكد على تواجد مفهوم الحضارة. من بعد ما مات سيدنا «آدم» عليه السلام وبدأ نسله

يعبدون الأصنام والتماثيل، فجاء «نوح» عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد ويرشدهم إلى طريق النور، ولكنهم كذَّبوه فأنذرهم بعذاب ربهم ولكنهم كانوا في ضلال مبين ومن ثم جاء الطوفان.

ثم استطردت قائلًا:

- أيضًا من قَبل سيدنا «نوح» كان سيدنا «إدريس» عليه السلام الذي قام بدور أساسي في نشأة الحضارة المصرية مع أوزوريس وإيزيس لنشر التوحيد والحكمة.

عدتُ من جديد إلى المنهج بكل ارتياحية، حينما قلت:

- خلينا نوضح نقطتين كده عن أهمية دراسة التاريخ:

إبراز القدوة الصالحة من الشخصيات التاريخية، والتي تركت بصماتٍ واضحة على شعوبها ليقتدي الإنسان بها.

الابتعاد عن التعصب، فهو يبين أن العالم لم يقم على حضارة واحدة أو عنصر واحد أو لغة واحدة، وأيضًا علينا ألا ننسى تلك المقولة الرائعة من أقوال الإمام «أبي حنيفة النعمان» ألا وهي "من قرأ التاريخ زاد عقله".

هدأتُ قليلًا حينما دخل الملل علينا وألقى السلام وبدأ يستعد بالجلوس معنا في هدوء مبتسمًا لي، وقبل أن يخرج لسانه ركلته بتلك الاستراحة الناعمة التي سنتعرف من خلالها على بعضنا البعض أكثر.

****

التطور!

حينما كنت صغيرًا لم أكن أحبّذ المدرسة ودائمًا ما كنتُ أتحجج كثيرًا حتى لا أذهب إليها، فتارة أتمارض متعللًا بأمراض مزيَّفة مثل آلام المعدة والرغبة في القيء، وتختفي تلك الأعراض تلقائيًا حينما يقول أبي: لن تذهب اليوم! وتارة أخرى أتشاكى من المشاكسات والتنمر الذي أتعرض له هناك وأحيانًا كنتُ أبكي كثيرًا وأتحول إلى مجنون أملًا في نيل الحرية، وذلك لأنني لا أحب فكرة الانفصال، فكيف لهما أن يجعلاني جليسهما لمدة قد طالت عن الخمس سنوات ثم بين ليلة وضحاها يتركاني وحيدًا منعزلًا عنهما، إلى هذه الدرجة يكرهاني؟!

لم يحدثني والدي عن المعنى الهادف من ذهابي إلى المدرسة ولم يعطِني المعنى الكافي لكي أحبها، وبالتالي كان عليَّ أن أجعلها كالجحيم في عيني، فهي من تبعدني عنهما مما يجعلني تعيسًا كاذبًا متوهمًا عنيفًا، وهي من ترشدني إلى الخطأ وتمحو ابتسامتي تحت سمائها وترهق فكري مما تجعلني أشعر بالنعاس، وبرغم كل هذا يطلبان مني أن أشعر بالمرح والسعادة هناك!

لن أنسى مشابكة يدي لإصبعك الصغير محاولًا عدم الإفلات، مطالبًا إياك بالالتفاف حولي وعدم تجنبي، وألا تسمح لتلك المعلمة البريئة أمامك الممسكة بعصا بطول ذراعيها من ورائك أن تأخذني منك، ولكنك لم تبالِ.. لن أنسى صراخي وحزني ومناداتي عليك بألا تتركني وحيدًا ولكنك لم تكن تهتم لأمري، وحين كبرتُ أدركتُ أن والدي كان المخطئ ولم يكن ذلك الطفل الباكي، حين كبرتُ أدركتُ أن بُغضي للمدرسة لم يكن قراراً نابعاً من داخلي وإنما ممن حولي، هم من جعلوني

أراها هكذا، فوالدي بالأخص ووالدتي لم يجلسا معي لتدريبي ومصارحتي بما أنا ذاهب إليه، فهما لم يتركاني ولو لدقيقة واحدة بعيدًا عن أنظارهما ثم في ثوانٍ معدودات يطالباننى بالتكيف والتأقلم والانفصال عنهما في مكان مجهول لا أعرف عن ماهيته شيئًا، كما إنهم لم يعطياني المساحة الكافية لكي أعرف عنها الكثير وعن الذي سأقابله هناك حتى لا أتفاجأ كثيرًا ومن ثم التمرد بعدم الذهاب، كما إنهم لم يعطياني القدر الكافي لكي أحبها.

في يوم من الأيام وجدتك تتحدث مع والدتي وتقول لها: لا أريد أن أذهب إلى العمل اليوم. وبالفعل لم تذهب، فباغتُّك بسؤال لم تجاوب عليه الإجابة الكافية التي تجعلني أقتنع وأعود من حيث جئت.

لماذا عندما تقرر عدم الذهاب إلى العمل تفعلها مباشرة وتجلس معنا، وعندما أقرر أنا ذلك توبخني كثيرًا ولا تعطيني الوجه السعيد بل الجامد القاتم؟!

أنت لا تعرف شيئًا عن الأعباء والأنشطة التي نمارسها بشكل يومي في ظل الروتين المستمر الذي لطالما أرهقني كثيرًا، فأنت لا تسمع مني ماذا يحدث معي بل والدتي التي بنهاية حديثي معها تسألني عن الواجبات والدرجات النهائية فقط!

أنت لا تعرف شيئًا عن التنمر وكم المضايقات التي تحدث تحت أعين الحاضرين وكأننا في ساحة قتال، من يأخذ طعامك ويركل مؤخرتك هو الفائز الذي لا يأبه لأحد طالما أن العقاب ليس له محل من الإعراب.

أنت لم تحدثني عن الأصدقاء وطبائعهم وميولهم ولم تسمع مني عن تلك الفتاة التي تعجبني ومن التي أعجبها وتلك التي أبغضها وهذا الذي

يشاركني أسراري وهؤلاء الذين أحب مجالستهم، فكل ما تفعله هو أن تذهب إلى عملك ولا تأتي إلا عندما أنام وكأنك تتعمد ذلك، فأنت لا تحبني يا والدي، ولم تكن تحبني مثلما أحببتك.

عند وفاتك يا حبيبي بكيتُ كثيرًا وصاحبت الألم والعذاب بألوان الفراق وكأنني أغرق داخل دوامة الحياة كل يوم.

بكيتُ كثيرًا ولكني سرعان ما كنت أعدل من ذلك حينما أتذكر أنني قد أحببتك أكثر مما كنت تحبني. تركتني وحيدًا وأنا لم أتم الخامسة عشر من عمري بعد، وكأنني قد اعتدت على الفراق وكأنه قد أصبح جليسي ولا يبحث عن السعادة ويأبى الحياة.

لقد كنتُ طفلًا صغيرًا يا والدي، أترجم فقط ما أراه أمامي ولا أعرف ماذا يوجد في الكواليس حتى أطلقت والدتي العنان حينما حدثتني عنك باستفاضة تامة فأدركتُ حينها أنك أحببتني أكثر مما أحببتك، فمن يستيقظ في عز نومه ليظل بجواري حينما كانت حرارتي مرتفعة، فقد أحب وبشدة، ومن عاهدني بأن يمنحني هدية من اختياري حينما أحصل على الدرجات النهائية في المواد، فقد أحب وبشدة، ومن ناقشني بكل هدوء في كثير من الأمور الحياتية محاولًا أن يحررني من بلود المشاعر وتجمد الأحاسيس والبعد عن الوحدة ولكنني لم أكن بمجيب، فقد أحب وبشدة، ومن كان يقبّلني وأنا نائم في فراشي حينما يعود من عمله الشاق ويظل بجواري كثيرًا والدموع في عينيه لأن معظم أوقاته ليست معنا، فقد أحب وبشدة.

- أستاذ «محمود»، حضرتك سامعني؟!

نظرتُ إليه في تعجب محاولًا استجماع قواي بعد تلك الحالة من التوهان والسرحان، فكثيرًا ما أتذكر حالي حينما أرى الطلاب يلعبون ويمرحون أمامي فأبدأ في الخيال والبحث عن الماضي، ولكنني جاوبته في النهاية بأنني ذاهب إلى موعد حصتي في الحال.

أثناء توجهي إلى الحصة قابلت مدير المدرسة في حضرة طلاب يبتسمون ويضحكون معه فأومأ برأسه تجاهي كي أقف معهم ثم قال لي بلهجة المرح:

- أستاذ التاريخ قد جاء ليقول لنا معلومة خاطئة كعادته.

«شاكر أفندي» هو خمسيني قمحاوي اللون محبوب، ولكنه حاد الطباع، ينحاز إلى رأيه ولا يسمع سواه معتقدًا بأنه الأصح دائمًا، متوهمًا بأنه القلب النابض للمدرسة ولا حياة فيها بدونه، متوجًا نفسه بلقب الزعيم، منفتحًا على الحياة بأراء خلابة تعجز عن وصفها بالجمال فقط وله من التشبيهات ما يجعلك متعجبًا مندهشًا مما يقول.

ذات يوم تحدث عن الحرية واصفًا إياها بقطعة الأرض الجميلة الممتلئة بالزهور والأشجار، ولكنها موضوعة بعناية في منطقة النفايات! وكأن قطعة الأرض تعبر عن سوء استخدام البعض لها وما حولها، دون الفهم الحقيقي لمحتواها والتقرب حتى لمغزاها ومداها السليم، وكأن النفايات تطلعنا على مدى حقارة المنطق في أعين المدعين بأن الحرية لابد أن تكون مطلقة دون قيود أو تحكم، نفعل معها ما نشاء وما نريد.

الحرية!

لقد تعلمت أن الحرية هي ضميرك وشخصيتك أمام الجميع، هي من

تعلمك كيف تختار وتتحكم وتميز وتعيش، هي من تدفعك إلى التعلم والتعليم والتمكين والتفحيص في حدود التعقل والمنطق الصريح والبعد عن الخطيئة بالوقوع في كوارث بأن الإنسان حر يفعل ما يريد دون التفكير في أن النعمة يجب أن تُصان لا أن تُهان، وأن الوطن يجب أن يُبنى لا أن يُهدم.

دائمًا ما كنت أرى أن الأشخاص الذين يعتنقون الحرية بمفهومها الواسع الشامل جماعةٌ خُلقت من أجل استعمال كل شيء دون التمييز بين النافع والضار، الصالح والطالح، الجيد والسيىء، متوهمين بأن التجربة لابد أن تحدث حتى ولو كان الأمر فاسداً، طالما أن قانونهم وفكرهم لا يمنعان ذلك، غير مبالين بقانون وشعائر الله. فهم مُنهكون للغاية في تأدية حق متاعهم، وتشبعهم بالحياة، والركض وراء التجربة، وفرض رأيهم، والتشبث بموقفهم، والدفاع عن معتقداتهم مهما كانت، والزحف وراء كل ما هو غير مألوف، واللجوء إلى العنجهية، ومن ثم تصبح الدائرة كبيرة فيصبحون بداخلها متقوقعين منزلقين منبطحين، فتُغلق عليهم غير مدركين بما هم فاعلون، غير متقبلين النصيحة ولا تلك العادات والتقاليد، فقط هم يفعلون ما يريدون وما يحبون، وكأن الحياة هي دارهم الأخيرة، لا حساب ولا نار، وكأنها ملاذهم ورغبتهم منذ البداية، فما لنا سوى أن نستمر بالنصح والإرشاد حتى يعودوا إلى صوابهم داعين لهم بالهداية.

****

الحظ!

عندما أمرُّ بظروف سيئة للغاية كنت أذهب إلى صديقي ببنها أملًا في تهدئة الأجواء والبعد عن المشاحنات والروتين وما إلى ذلك، وأثناء تواجدي هناك لليوم الثاني على التوالي، هاتَفَني صديق آخر يخبرني بأنه قد اتفق مع اثنين من أصدقائنا للذهاب إلى العين السخنة في الفجر، فأعجبتني الفكرة وتلك الحالة الجنونية التي كانت تسيطر على الأجواء فتعطي للحياة طابعاً رائعاً يمنح السكينة والجنون في آن واحد، ولكنني قد أخبرته بأن يتم تأجيل الموعد لساعتين على الأقل حتى يتيح لي الوضع بأن أذهب معهم لا بعدهم أو قبلهم، وبالتالي سأهبط إلى منزلي لنجتمع سويًا ولنسرح معًا.

عزمتُ «علي» صديقي المقيم ببنها أن يأتي معنا فالأجواء ستكون خيالية ورائعة للغاية، ولكنه تمنَّع وأخذ من الأسباب ما يكفيه، ومن الفجر حضَّرت حالي وذهبت في هدوء.

تمنيت من الله أن أجد الميكروباص بسرعة حتى أصل إليهم في الموعد المحدد ومن ثم نذهب سويًا، ولأن الوقت كان مبكرًا للغاية لم أجد سوى عربات واقفة بلا ركاب ولا سائقين ولا حتى روح، فقط وحدي في ظلام يتخلله بعض الومضات التي تعطي الرؤية مذبذبة غير واضحة، ولكن سرعان ما جاء ضوء عربة وصوت جعل قلبي يتراقص عندما قال:-

رايح مصر؟

كان بداخلها شخصان، ورجل مسن تجلس بجانبه سيدة كبيرة، ولم ينتظر ذلك السائق سوى بضعة دقائق وانطلق، بل كان مسرعًا وكأنه يعلم أن لدي موعد قادم ورحلة جنونية.

لم تدُم ابتسامتي..

لم تدُم ابتسامتي عندما تملكني الخوف وتلك الرهبة التي جاءتني دون سابق إنذار، فهل بالفعل سأذهب بتلك السرعة دون عناء إلى محطتي القادمة ومن ثم المرح والسعادة؟! هل بالفعل سأذهب إلى أصدقائي دون جهد يُذكر أو معاناة كما يحدث معي دومًا؟! هل بالفعل سيحدث ذلك؟! لم أتمالك نفسي ولم أصدق حالي وأدركت أن الموت قادم لا محالة وأن تلك العربة ستنقلب بنا بعد عدة لحظات، فلم يحدث معي من قبل بأن وجدت الراحة دون التعب والجهد وبذل العرق حتى أصل إلى مرادي. لم يحدث من قبل بأن ابتسمت لي الحياة من المرة الأولى وليس من العاشرة، ولم يحدث لي من قبل شيءٌ بتلك السهولة وكأنه مبتذلٌ لا أعرف ماهيته، ففي كل مرحلة قد مضت من حياتي كان لابد لها أن تتخطى حواجز التعب والمشقة والصبر المصاحب لألم نفسي، وإن كان الصبر هو مفتاح الفرج فهو أيضًا بيت الضغط النفسي، وبالتالي قد أصبحتُ زاهدًا للدنيا شاكرًا حامدًا لا أبالي بما هو قادم، فالخير قادم لا محالة وذلك يقين بالله.

حاولت استجماع ذاتي بالهدوء قليلًا والبحث عن أشياء أخرى تجعلني أخرج من دوامة التفكير السلبي والخضوع إلى النهاية المحتومة، وبالفعل ذهبتُ إلى منزلي سالمًا غانمًا دون التعرض إلى أي شيء يعكر صفو يومي إلى أن جاءني ذلك الهاتف.

النحس!

والد صديقي قد جاءته غيبوبة السكر وذهب به إلى المشفى، والآخر لا يرد وكأنه قد اتخذ أمره بعدم الذهاب وقرر تهيئة هاتفه على وضع

الصامت حتى لا يتم إزعاجه ومن ثم إيقاظه، أما الثالث والأخير فهو من أخبرني بكل هذا، منزعجًا مما حدث متمنيًا أن نفعلها في يوم لاحق.

- بس يا «محمود» محدش عارف كان ممكن يحصل إيه لو كنت سافرت اليوم ده لا قدَّر الله يعني.

قالها «حسن» بعدما ضحك كثيرًا من شدة الموقف أثناء تواجدنا في حجرة المدرسين، وكأنه يداعب حظي ويناكف موقفي ويعزز من قيمة صبري، ولكنه عاد من جديد إلى المزاح والضحك ومن ثم التعجب حينما تذكر بأنني استيقظت ذلك اليوم مبكرًا عائدًا إلى بيتي مهرولًا لتحضير حقيبتي ثم تحدث تلك الأشياء ولا أسافر، وكأنه يشير إلى أن القدر يحكم قبضته وكلمته، فيجعلك تغيّر ما كنت تتمناه وتريده وتستجيب إلى الأمر الواقع، مفكرًا واعيًا أن الله له حكمة في ذلك ومن ثم الهدوء والبدأ من جديد.

ثم بدأ هو الآخر يحكي موقفًا مشابهًا لقصتي، حينما تطرق في حديثه إلى الميعاد الميؤوس منه، فلم يتقابل هو وأصدقاؤه الذين تعرَّف عليهم في "كورس الإنجليش" لمدة سنتين، وحينما تم الاتفاق على موعد زواج أحدهم، أطلقوا العنان إلى أن الموعد قد حان، وتلك الليلة هي يوم جمع الشمل، ولكن ما حدث بعد ذلك لم يكن في الحسبان، فإطار السيارة الخلفي انفجر وتحولت الليلة إلى كابوس مفزع لهم، ولم يحضروا الحفل سوى عشر دقائق أخيرة فقط، بل والصورة الوحيدة التي جاهدوا في أخذها لم تكن مستقرة وغير واضحة، فوضعوا كل الأمل في مصور الفرح لعله التقط واحدة، وبالفعل فعلها ولكنهم لم يكونوا مجتمعين مع بعضهم البعض في الصورة بل كان ينقصها شخص واحد لم يكن منتبهاً أثناء

تصويرها، وذلك الشخص هو بكل تأكيد «حسن» صديقي، فعلموا من أين جاء كل هذا ولِمَ حدث كل هذا.

أنهيت حديثي معه بعدما لم أتمالك نفسي من الضحك، حينما علمت أنه أيضًا من قام بأخذ صورة "السيلفي" غير الواضحة.

بعد أن فطرنا سويًا، صعدتُ إلى حصتي كي أتحدث عن «الحياة السياسية والإدارية» في مصر القديمة.

****

أدرك المصريون منذ فجر التاريخ أن الوحدة هي الطريق الوحيد لبناء وتكوين دولة قوية ذي نهضة حقيقية في كافة المجالات، ومن بعد حياة الترحال في صحراء مصر والاستقرار على ضفاف النيل، بُدأ في إنشاء القرى والمدن، وسرعان ما استقرت وتطورت حياتهم، فالاستقرار يبدأ حينما يصبح لديك نظام حكم قوي وملك عظيم وقضاء عادل فعَّال وجيش منظم قوي يحمي حدود البلاد، فمن يفشل حينما تصبح تلك الوحدة بهذا الشكل؟!

اعتنق المصريون فكرة الملكية المقدسة، فكان الفرعون في نظرهم إلهًا على الأرض، يدير شؤون المملكة وتتركز في يده جميع السلطات، فهو الآمر والناهي، والشعب من خلفه يوافق ويشجع على ذلك داعين له بطول العمر والتوفيق، ومن هنا أصبح الحاكم مستبداً يفعل ما يحلو له، فالطاعة العمياء تجعله على العرش وقمة الهرم، وبالتالي مع أواخر الدولة القديمة حدثت الإفاقة وتغيرت تلك النظرة نتيجة الظلم والاستبداد والاضطهاد، ومن ثم قيام أول ثورة اجتماعية في التاريخ، والتي نتج عنها

تحوُّل نظام الحكم من الملكية المطلقة إلى الملكية المقيَّدة التي يلتزم فيها الفرعون بما يصدره من قوانين، وعندما ضعفت سلطة الملك «ببي الثاني» استغل حكام الأقاليم والكهنة موارد وخزائن الدولة، وأخذت الحكومة من الفقراء لتملأ خزائن الأغنياء، فانعزل الحكم والمُلك عن الشعب وعمَّ النفاق أرجاء البلاد، وبالتالي كان لابد من وجود ثورة من جانب الشعب بعدما فاض به الكيل، شعارها العيش الكريم والعدالة الاجتماعية، واشتعلت في مصر كلها وهجم بعض الثائرين على مخازن ودواوين الدولة مما أحدث أعمال السلب والنهب وهجموا على بيوت الأغنياء وأخذوا ما فيها، واستمرت البلاد في حالة من الفوضى فترة من الزمن.

لقد علم الشعب بعد تلك الثورة أن الملك هو حاكم يرعى مصالح الوطن ويعبر عن آرائهم وآمالهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح الذي يحقق العدالة الاجتماعية ليس إلا، بل ظهرت تلك الطبقة التي لم تعتز بحسبها ونسبها ومكانتها لسوء أوضاعهم المادية غير مدركين أن البشر سواسية وأن العقل زينة، وأن الفكر الجيد دائمًا ما يجعل الأرض تنبض بالحب والحياة.

ما إن لبثت حتى وجدتُ الصمت والتعجب يخيمان على وجوههم، فقال أحدهم في حيرة حينما وقف ونظر في عيني مباشرة:

- يا مستر.. دا اللي حصل دا شبه ثورة يناير!

فهززت رأسي في إيجاب والبسمة لا تخلو وجهي، فأكمل حديثه قائلًا:

- هو حضرتك شاركت فيها؟

- لا، أنا شاركت ضد «ببي الثاني».

ضحكوا جميعًا حينما أدركوا المعنى، ولكي أؤكد على ذلك، اقتربت منه ثم قلت له بلهجة هادئة تعبر عن مدى الثقة:

- الثورة دي جت بعد تعب وشقى وظلم وتكتيم أفواه وضياع وحاجات كتير فوق بعضها حصلت، فكان لابد من وقفة. أنا شوفت مشهد في فيلم خيالي قبل كده، كان شخص لابسه عفريت ودايمًا مخليه في غيبوبة، فـ وهو مربوط على السرير وضربات قلبه بتتوقف عن العمل، كانوا بيصدموه بصدمات كهربائية عشان تنتظم ضربات قلبه، في الوقت اللي كان بيخضع للصدمات الكهربائية كان بيفتح عينيه بطريقة غريبة ويتكلم بصوته مش بصوت العفريت اللي ملازمه على طول، كان بيعبر عن نفسه وعن وجعه في الكام ثانية دول، فالثواني الصغيرة دي كانت أصدق حاجة للشخص ده، كانت حياته ووقته مش وقت العفريت، أهي الثواني الصغيرة دي بالنسبالي تعتبر هي الثورة.

ابتسم لي، ثم جلس مكانه، وعدتُ من جديد لكي أكمل باقي الدرس.

التعصب!

بعد الثورة أصبح شغلنا الشاغل هو التحدث في السياسة من طفل صغير ينشد بعضًا من المطالب التي أسقطت النظام إلى أكبر خبير إستراتيچي وناشط سياسي والمتحدث الأول وما إلى ذلك.

استطاعت الثورة أن تجعل كل فئات المجتمع تتحدث في السياسة وتطالب بالمزيد من أجل التقدم والرقي والتحضر، مما أدى إلى أنها أصبحت الموجة السائدة أكثر من كرة القدم والحديث عنها، تلك التي

كانت ترفرف لها الأعلام الوطنية حينما يفوز المنتخب وتصبح الأغاني الوطنية في ذلك التوقيت فرضاً، فلم نكن نسمع تلك الأغاني مثلًا في افتتاح مشروع ضخم أو حتى مصنع، وللأمانة لم نكن نهتم لأننا بالنهاية نعرف إلى أين ستذهب موارده، ولذلك أصبحت كرة القدم هي المأوى لنا أو كما نقولها دائمًا هي جزء من حياتنا، حتى جاءت الثورة وامتلأت الميادين بالأعلام والزينة والفرحة، وتلك الهتافات التي كانت ترج أرجاء المدينة، فتغيرت الحياة اليومية لنا وتغيرنا بها، ومن هنا أصبحت السياسة هي رقم واحد في مصر!

هل هنا كانت بداية المشكلة؟ بمعنى آخر، هل السياسة والتحدث بها في أي وقت وفي أي مكان هي الفتيل الذي أشعل شوارع الوطن؟

السياسة استطاعت أن تقسم الشعب المصري إلى فريقين، مؤيد ومعارِض، فكل فريق أصبح متعصبًا لرأيه وفكره ومبادئه ولا يريد أن يسمع للرأي الآخر بل ويتحول النقاش في بعض الأحيان إلى ساحة حرب فتنتهي بخسارة الاثنين فكريًا وثقافيًا.

ذلك التعصب الأعمى الأشبه بالفيروس الذي يتفشى في جميع الاتجاهات، ويخترق كل من يقف ضده، ويحاربه بأبشع الطرق، ومن ثم يقضي عليه، فالتعصب السياسي مقيتٌ، وسياسة التخوين القذرة باءت تتحكم بنا.

لماذا وصلنا إلى هذا الحال؟! ولِما يحدث كل هذا ونحن بلا دافع أو مواجهة؟!

القصص منذ بداية التاريخ وهي تحكي وتقرر وتعبر ولكننا لا نتعظ ولا نفهم، وكأننا في دائرة لا نعرف كيفية الخروج منها، وكأننا في فيلم نعرف

كيف ستكون بدايته وكيف سينتهي بنا المطاف عند بدايته أيضًا من جديد، بمعرفة الأسباب والأدلة والنتائج المترتبة على ذلك، وبالتالي النهاية كما هي بلا أي تغيير.

كان هناك مثل سياسي يقول "الاختلاف في الرأي لا يفسد في الود قضية" ولكن ذلك كان في الماضي، أما الآن فلم تعد هناك قضية، فالاختلاف في الرأي قد أفسدها.

أعلم أن الأصابع ليست كمثل بعضها البعض، فأنا على يقين تام أن هناك من يتقبل الرأي الآخر بصدر رحب بل ويحترمه للغاية، ولكن دائمًا ما تفسد التفاحة الفاسدة الكثير والكثير، بل هي ليست تفاحة واحدة فاسدة، بل تفاح فاسد، رأيهم فاسد، كذبهم وخداعهم وتوجيهاتهم المضطربة فاسدة، ودائمًا ما أتساءل، ما الفائدة من المناقشة إذا كانت ستؤول إلى ذلك التعصب الأحمق؟! فالتعصب وصل بين الزوج والزوجة، وبين الأبناء والآباء، والعائلات، والأصدقاء، وكأنه مرض تفشّى بلا علاج، فحينما يحضر التعصب يغيب العقل، وحينما تغيب التوعية يتواجد الفاسدون، وحينما يتواجد الحمقى يغيب المنطق.

****

حينما أنظر إلى طلابي بعدما أعبر الفصل، أجد سعادتي وشغفي وحبي، على الرغم من أن الأستاذ «إيهاب» حينما كنتُ طالبًا لديه، كان يكره تلك اللحظة ويصفها بالدخول إلى الحمام المتسخ، وعلى الرغم من ذلك التشبيه الغريب إلا أن ذلك المكان يسبب الراحة والهدوء حتى ولو كان متسخاً، ولكنه كان سادياً وذلك ما جعلني على علم بأن دخوله إلى مجال التدريس كان من أجل الضرب والعنف ضد الطلاب لا أكثر ولا أقل، فهو يتلذذ بالعقاب والصفع، بل قلت له تلك الكلمة في وجهه ولم أبالِ بما سيفعله فيما بعد، فضربني أشد الضرب، وكأنه لم يضرب إنسانًا قط في حياته، وعندما عدتُ إلى بيتي ورأت والدتي ماحدث بيدي وذلك الورم البشع، والاحمرار الذي يعلو وجهي بل كانت عيني اليمنى ليست طبيعية وذلك بسبب الصفعة القوية التي تلقيتها حينما تفوهت بتلك الكلمة، قررت أن يذهب معي والدي في اليوم التالي، وبالفعل حضر وأحدث ضجة عالية، ومن علو الصوت جاء المدير إليه قبل أن يهجم على «إيهاب» وأخذه إلى مكتبه، وهناك طلب منه أن يتفحصني ليرى تلك الكدمات التي بوجهي وتلك اليد المنتفخة، فطلب منا الهدوء والتريث بتلك الابتسامة الصفراء اللزجة، وقرر أن ينقلني من الفصل، فنظرتُ في عينيه مباشرة وقلت له بالحرف الواحد بأنني سأبقى لأن أصدقائي معي ولن أتخلى عنهم، ومن عليه أن يُنقل هو ذلك السادي.

لا أعلم من أين جاءت تلك الكلمات ومن أين أصبحتُ بتلك القوة حينها، فأنا لازلت في الصف الثاني الإعدادي، ولكنني قد تجرأت على نفسي منذ اللحظة التي وجدتها تُضرب وتُحتقر وتُهان منه بدلًا مني.

والدي وقف بصفي ولم يوبخني حينما تفوهت بكلمة سادي أمام المدير، فجعلني في موقف عظيم واثقًا في ذاتي، فمن يقف خلفي هو سندي ووالدي رحمة الله عليه.

ما إن لبثت حتى تكلم «حامد عبد الرحمن» ذلك الذي كان يجلس على يميني، فنحن في حضرة منزله:

- حضرتك وأنت بتحكي عن موقف اتعرضت ليه في المدرسة وعمرك ما نسيته، قولت إن الثقة جتلك لما شوفته وهو بيضربها وبيحتقرها، مين دي يا مستر؟!

ضحكوا ممن حوله، وابتسمتُ له حينما وصفته بالمنتبه زيادة عن الحد المألوف، ثم أكملت لهم ما بدأته.

لم أكن أعلم عنها الكثير، ولم تكن تعبث بخيالي وقت النوم، بل لم أكن أعلم ما اسمها، ولم يحدث أن تحدثنا مع بعضنا البعض قبل تلك الواقعة ولو حتى لدقيقة واحدة، كما لو أنها لم تكن موجودة من الأساس، فكل ما هنالك هو أنني كنت متعلقاً بحب فتاة أخرى ولم أكن أرى غيرها، وفي مرة من المرات وجدتها تبكي، فاقتربت منها وتلك هي المرة الأولى التي أذهب لأتحدث معها محاولًا أن أستفسر بكل أدب عن سبب بكائها، كما أن لحظات الشجاعة لا تأتي كثيرًا في تلك المواقف، فقالت لي بأنها قد نست كتاب أستاذ «إيهاب» ولا تعلم كيف حدث ذلك وظلت تبكي خوفًا من العقاب القادم، فمن غير تفكير ناولتها كتابي مطالبًا إياها أن تهدأ وألا تقول لأحد عن ذلك الأمر، وبالفعل أخذته مني دون حتى أن تعترض أو تفكر في كم الضرب الذي سألقاه نيابة عنها ومن ثم تخفف

عني أو حتى تسألني عن سبب فعلتي تلك، بل أخذت الكتاب وابتسمت ثم عادت إلى مكان مجلسها، فتعجبتُ من ذلك ولكنني من الداخل كنت سعيدًا للغاية بأنني قد جعلتها تتوقف عن البكاء وأصبحت في مأمن، وانتظرت عقابي الشديد وما بعده حتى تنتهي الحصة وتأتي إليَّ كي تخفف عني وتشكرني ومن ثم تبدأ قصتنا معًا، ولكن ما حدث غير ذلك، فبعد أن دخل الأستاذ، جاءت «بسمة»، تلك الفتاة التي لا أتذكر أنني قد تحدثت معها قط، وألقت بكتابها أمامي ولم تتفوه بشيء وذهبت. نعم، ذهبت بعد نظرة قاسية منها، فاتسعت عيناي من هول الموقف، ولم أنطق بحرف واحد وكأنني قد أصبحت فجأة غير قادر على الحديث، وما أن حاولت أن أعدل من ذلك، كان قد نطق بتلك الكلمات المسمومة وسأل عن من جاء اليوم وقد نسيَ كتابه، فرفعت يدها بدلًا مني وأصبحت الوحيدة ممن في الفصل التي ستتلقى العقاب.

في كل مرة كان يضربها بالعصا، كانت الضربة تهبط عليَّ وتكسرني من الداخل وتحطمني وتجعلني أبكي محترقًا بما يحدث أمامي وأنا عاجز بلا حراك أو حتى أي فعل، وما كان يقتلني غيظًا وألمًا حينما كنت أنظر إلى من أحببتها يومًا كنتُ أجدها تبتسم ولا تبالي، وكأنها قد نسيت بأنها كانت ستكون مكانها لولا حماقتي وغبائي.

حينما انتهت أطول حصة في العالم كله، ركضتُ إليها ونظرت في عينيها مباشرة، ولكني أبعدتُ نظري سريعًا إلى يديها حتى لا تلاحظ بأنني كنت أبكي، فوجدتهما منتفختين، فطلبتُ منها أن نهبط سويًا إلى العيادة الصحية بأقصى سرعة، وعندما رفضت، أصبح حديثي أمراً واجب

التنفيذ وليس بطلب، وبالفعل ذهبنا سويًا، وأحضرت الطبيبة ثلجًا ليديها، وأعطتها دواءً لا أعرف شيئًا عن ماهيته، ولم يطمئن قلبي إلا حينما أصبحت هادئة تتعافى بلا خوف أو رهبة.

سألتها عن سبب فعلتها، ولكنها لم تبدي أي إجابة، وحينما صممتُ على ذلك، قالت بأنها لا تدري لِما أقدمتْ على ذلك، فكل ما هنالك أنها وجدتني في محنة، فتصرفت على طبيعتها.

إنه الحب يا سادة بلا أي مقابل.. تلك النظرات وأبراج المراقبة تجعلك مولعًا بناره، ولا تهدأ إلا حينما تغزو قلبك لتتذوق معناه وتفهم مدى تأثيره حتى تقترب من سعادته.

عدنا إلى الفصل معًا، واطمئننتُ عليها حينما ابتسمت لي بعدما جلست مكانها، ثم ذهبتُ بنظري لأحتقر من أصبحت في الماضي وأمرر عليها نظرة الوداع، ولأدرك بأن الحياة غريبة المعالم لا تتوقع منها شيئًا، فمن أحببتها لم تبالِ بما فعلته من أجلها وكم أمضيت الكثير من الوقت في مراقبتها كي أتحدث إليها، وأن الفتاة التي لا أعرف عنها شيئًا تحبني وتراقبني، حتى جاءت اللحظة المناسبة وتدخلت كي تجعلني ألتفتُ لها، كي تقول لي بأنها من سكان كوكب الأرض.

لم أحب فتاة قط مثلها، فهي من جعلتني أعشق الحب وأتغنى به، ولم أدرك تلك المعاني إلا حينما كبرت، بل لم أتخيل أن فترة مراهقتي ستدوم طويلًا هكذا ولا أعتبرها تجربة قد ولت ومضت وأن تلك الأيام كانت مرحاً وصغر سن ومراحل نضج ليس إلا، لا، الأمر لم يكن كذلك، فأنا لازلت متعلقاً بها حتى وهي ليست معي الآن.

فقالت فتاة تبدو عليها علامات التعجب والألم معًا:

- ليه سبتوا بعض؟!

نظرتُ إليها، ولم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أقول، فالقصة غريبة بعض الشيء، ولكنني قلت لها ما حدث.

الوضع حينها كان هادئاً، فعمري قد بات قريبًا من الثلاثين، ولم تكن قد جاءت ثورة الهواتف المحمولة وتوسعت بشكلها الآن، فأنا لم أحمل واحدًا قط إلا حينما عبرت بوابات الجامعة، ولأنها كانت معي دائمًا ولا تبتعد عني سوى في إجازة منتصف العام التي طالما كرهتها ولكن ليس بقدر كرهي وبغضي لإجازة آخر العام، فلم يشكل الأمر معي فرقًا كبيرًا، حتى ابتعدت ولم أرَها في الصف التالي، تلك الفتاة التي تعرفت عليها وأحببتها في الترم الأول للصف الثاني الإعدادي، وزاد عشقي وشغفي لها في الترم الثاني، إلا أنها قررت أن تبتعد ولم تأتِ إلى المدرسة في الصف الثالث الإعدادي، وحتى الآن لا أعرف ماذا حدث، فربما انتقلت إلى مكان آخر أو سافرت إلى محافظة أخرى، ولكنها لم تقل لي شيئًا في آخر يوم دراسي، فقد كانت تبكي لأنها لن تتكمن من رؤيتي لمدة قد تطول عن ثلاثة أشهر، ولكنني طمئنتها بأنني سأتصل بها عبر الخط الأرضي وأخذتُ رقمها بالفعل، ولغبائي لم أكن أعرف رقم هاتفي المنزلي، وحينما حاولت أن أفاجئها وأتحدث معها، قام بالرد عليَّ صوت رجل، وبالتالي لم يكن لدي الجرأة بأن أحادثه فأغلقت الهاتف، وكررت ذلك الأمر كثيرًا على فترات متباعدة ولكنه كان دائمًا ما يرد أو يصبح الجرس طويلًا ثم يُغلَق. ولكنني فعلتها حينما لم تأتِ في أول أسبوع من العام الجديد، فجن

جنوني وذهبتُ إلى شئون الطلبة وحاولت جاهدًا أن أعلم عنها أي شيء، ولكنني صُدمت حينما قالت لي بأن أوراقها لم تعد موجودة، فلقد حولت إلى مدرسة أخرى ولا تعرف إلى أين ذهبت، فعدتُ إلى فصلي كئيبًا حزينًا والدموع كادت تتساقط من عيني ولكنني جاهدتُ نفسي وركضت إلى بيتي حينما انتهى ذلك اليوم القاسي الصعب، واتصلت بها بكل شجاعة وبقوة تلك المرة، وحينما أجاب ذلك الرجل على الرغم من أن صوته كان متغيرًا بعض الشيء، سألته عن «بسمة»، ولكنه قال لي بأن الرقم خاطئ، وحينما عاودتُ الاتصال به من جديد ولم أيأس، أجاب ذات الشخص، فقلت له كافة المعلومات الممكنة عن فتاتي، فهي تلك الجميلة الرقيقة، وعيد ميلادها هو اليوم العاشر من شهر يناير، ولديها أخت أصغر منها بخمس سنوات تدعى «علا»، ووالدها «محمد عبد المجيد البدري» وهو ذلك الذي يتحدث معي ووظيفته محاسب في شركة مصر للتأمين، متمنيًا ألا يتنصل مني، فأنا أريد الاطمئنان عليها فحسب، ولكنه أقسم بأنه لا يعرف أحدًا يُدعى «بسمة» ثم أغلق الهاتف، فتساقطت تلك المرة ولم أمنعها، وجلستُ وحيدًا شريدًا في الظلام بلا قوة أو دافع لِما هو قادم.

حينما أنهيتُ حديثي عمَّ الصمت، وهناك من غرغرت عيناه بالدموع، وتلك التي أخفت عينيها عن الحاضرين بدفس رأسها تحت طاولة السفرة، وهذا الذي بيميني حينما ربت علي يدي كي يواسيني، فوجدتها دراما بائسة وابتسمت لهم كي أغير من رتم ما حدث، وسرعان ما عدتُ إلى الدرس وكأن شيئًا لم يكن.

يا الله على جمالها ورقتها وقتها، وكأنها وردة جميلة موضوعة بعناية في بستان هادئ، تتراقص حوله وتعطيه النفس المنعش، فهي من علمتنى الحب وجعلتني أعطيه لمن يستحق، فكم هي صعبة تلك اللحظات التي مرت وهي تجول بخاطري باحثًا عنها دومًا لعلي أراها يومًا ما.

لم أجد من يسد فراغك ويحبني مثلما فعلتِ، فأنتِ تتلألئين كنجمة وحيدة في هذا الكون الشاسع ولم يصل إليكِ أحد قط، ولا أعلم كيف السبيل إليكِ؟ وهل لازلتِ على العهد أم جاء النجم الساطع وأخذك إلى ساحته وأرضه فنسيتِ كل شيء؟

أنا لم أنسَ قط تلك المواقف والحكايات التي حدثت بيننا، فلا أنسى وقت الطعام سويًا ووقت الضحك والغناء وصوتك العذب يا فتاتي، ولا تلك الرسائل والجوابات التي كنا نكتبها بدقة ونسلمها إلى بعضنا البعض في نهاية اليوم، فلدي من الذكريات ما يكفيني لأتذكرك دهرًا كاملًا يا «بسمة» لعلي أراكِ يومًا ما، أو حتى تأتي فتاة مثلك تغمرني بحبها، ولو أنه لا توجد فتاة مثلك يا حبيبتي.

****

بعدما أنهيت الدرس، ذهبتُ إلى بيتي في غضون الساعة الخامسة مساءً، فوجدتُ والدتي حزينة ولم تسلم عليَّ على غير العادة، ولكنني أعرف السبب، فاليوم كان من المفترض أن نذهب إلى منزل أحد من أتباعها لكي أقابل فتاة ما ثم نتعرف على بعضنا البعض ونتزوج، وكأن المعادلة بسيطة وجميلة للغاية، وأنا من يصعبها ويخربها بلا أدنى فهم أو ذكاء!

- متاكُلش من الأكل اللي عاملاه.

محاولة بائسة في توجيه قاطع النظير بأنني إذا وافقت على الذهاب ستجعلني آكل، ولكنني لا أكترث للأمر إطلاقًا، وبدأت في إحضار الطعام بالفعل على المنضدة أمام عينيها المتسعتين في غضب وكأن البركان قد أوشك على الانفجار.

- يعني كلامي مبيتسمعش! طب لو جيت معايا هخليك تاكل.

بكل برود تام، قلت لها مازحًا:

- سلامة نظرك يا حبيبتي، أنا باكل فعلًا!

والدتي لا تعرف كيف هي سمات المقايضة أو حتى تحرمني من شيء تنفيذًا لرغباتها، فهي أرض الحنان وينبوع المحبة والمودة ولو أصبح كل البشر كمثل أمي لتعايشنا في سلام وأمل وحب دائم.

لم تتفوه بشيء وظللت أبتسم في حالي محاولًا مضايقتها، ولكنني صُدمت حينما وجدت دموعها تهبط بهدوء على وجهها الجميل، فركضتُ نحوها وقبَّلتها وضممتها إلى صدري، فمن أنا كي أجعلها تبكي بسببي؟! ومن بعد أن هدأت قليلًا، قالت لي بصوت حزين وهي لاتزال تمسح عينيها من الدمع:

- يابني نفسي أفرح بيك وأجوزك قبل ما أموت.

وكأنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالجملة وبنفَس والدتي الثقيل المتعَب، وكأنها المرة الأولى التي أرتجف فيها ولا أشعر بقدمي، فجلستُ بجانبها وضممتها إلى صدري بكل قوة تلك المرة وتمنيت لها طيلة العمر.

آه يا أماه، كيف لي حياة من بعدك يا حبيبتي؟! فأنتِ في كفة والعالم أجمع في كفة أخرى، فأنا لا أقدر حتى على بعادك ليوم واحد، فماذا أنا بفاعل

حينما ترحلين؟! آه يا أماه لو تعلمين كم أعشق التراب الذي تحت قدميكِ، فأنتِ من تجعلينني قادراً على العيش في ظل قسوة الحياة وصراعاتها الدائمة.

طلبتُ منها أن تمسح دموعها، فمن سيأتي معي اليوم كي نرى ست الحسن والجمال وهو حزين هكذا! فابتسمت على الفور وضمتني إلى حنانها وقالت لي:

- ربنا يجبر بخاطرك يابني.

ثم ذهبت مسرعة إلى غرفتها كي ترتدي زينتها وحلتها، وعدتُ إلى طعامي من جديد، فوبختني كي أسرع حتى لا نتأخر فعادت والدتي إلى عادتها، وما أثار دهشتي هو أنني وجدتُ طبق الشيكولاتة الذي سنذهب به إلى هؤلاء القوم بجانبي، وكأنها كانت تعلم من صميم قلبها بأننا سنذهب بالفعل، فابتسمتُ واتجهتُ إلى غرفتي لأرى ماذا سأرتدي.

قبل أن ندق بابها قامت بهندمتي وعدلت من لياقة قميصي حتى أبدو أحمقَ بزيادة، فقلت لها:

- يعني كنتي جايبة الشيكولاتة من الأول وكأنك عارفة أننا هنروح؟!

- كنت عارفة أني هصعب عليك ومش هتسبني زعلانة.

الأم يا سادة.

فتح لنا ذلك الخمسيني ورحب بنا وأخذنا إلى الداخل.

فتاة في منتصف العشرينات ترتدي من الوقار ما لا يفتن جمالها الراقي. بيضاء اللون وطابع الحسن يتغنى بها، تبدو واثقة وعازمة على خوض التحدي وكأنني ماكينة جديدة تحت قيد الاختبار، لها ابتسامة رائعة ولكنني لم أدقق

كثيرًا، فدائمًا ما تعود إلى وجهها المعتدل وكأنها لا تريد أن تبتسم في وجهي بالخصوص وكأنها تتجنب أن تنظر في عيني مباشرة، ولكنني أعلم أن تلك الأشياء تحدث وهي علامات تدل على الحرج والخجل ليس إلا.

بدأت والدتي تتجمل بها منذ بداية مجلسنا، وتتهادى بأدبها وجمالها الفاتن، ومن الواضح بأنها قالت ما كانت تتقنه وتريده، ثم بدأ والدها يوجه حديثه لي كي يعلم من أنا، فأعطيته من المعلومات ما يريد، فالشقة جاهزة، ولديَّ عمل ثابت ولا ينقصني سوى عروسة تسكن بداخلي وتحبها والدتي، ولكن ما كان يثير دهشتي هي تلك الفتاة، وكأن بداخلها سر لا أفهمه، ولكن سرعان ما يتحول الشك معي إلى خجل مثلما تم تلقيني من قِبَل والدتي قبل المجيء، فأنا ليس لدي خبرة في ذلك، فتلك هي المرة الأولى لي في جواز الصالونات كما يلقبونه بذلك، ولا أعلم هل ستكون الأخيرة أم لوالدتي رأي آخر؟

بعد الحديث الكثير والملل حينما بدأ يعبر ويجلس بجانبنا، قرروا أن نجلس وحدنا بالقرب منهم كي نتعرف على بعضنا البعض، وبالفعل ذهبوا إلى الصالة المقابلة مباشرة كي نبقى تحت أنظارهم ونقول ما في قلوبنا.

أحسستُ بالغباء التام لأنني غير قادر على فتح أي حديث، فتارة أمدح في جو اليوم، وتارة أتحدث عن الأخبار العالمية التي تحدث، ولم يكن ينقصني سوى أن أتحدث عن أحوال الطقس جميعها!

لم تكن تتحدث ولا حتى تبتسم وكأن شكوكي منذ البداية قد أصبحت محل ثقة، فسألتُ نفسي "هل ترفضني من دون حتى أن تعرف شخصيتي ونتحدث سويًا؟! فأنا لستُ سيئًا هكذا!"

يا إلهي، كم أكره تلك الجلسات وأبغضها بشدة! ماذا يحدث مع تلك الفتاة؟! انتظر يا هذا، ماذا لو أصبح ما يدور في عقلي الآن هو ما يوضح ذلك الغموض؟!

لم أنتظر، وقلت لها بلهجة سريعة دون أي مقدمات:

- إنتي مرتبطة؟!

برقت في عيني بشدة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تنظر فيها إليَّ لأكثر من ثانيتين، ولكن سرعان ما حاولت العدول عن ذلك الأمر، وانكمشت داخل كرسيها، بل وتوترت كثيرًا، وما أكَّد لي ذلك هو أنها كانت تعبث وتمرر بيديها اليسرى على إصبعها البنصر، وكأنها تعترف بوجود حبيب، ولولا الزمن وتقلبات الحياة لأصبح مكاني ولأصبحت ابتسامتها كضي القمر.

- محتاج ردك، إنتي مرتبطة؟!

نظرت في عيني مباشرة، ثم إلى أسفلها وأومأت رأسها بالإيجاب، فضحكتُ، فنظر إليَّ هؤلاء الذين يتلصصون علينا، ثم ضحكوا كناية وتعبيرًا عن سر تفاعلنا مع بعضنا البعض، وكأن الكميا التي بيننا تتزايد، فضحكتُ بشدة على ذلك الأمر، فضحكوا بشدة أيضًا، فأيقنت تمامًا بأننا جميعًا مجانين.

- طب ومجاش ليه يتقدم ليكي؟

فأجابت بكل خجل واضطراب وبصوت رقيق ناعم:

- لسه مش جاهز، ظروفه وحشة جدًا.

- طب حدد معاكي في خلال قد إيه يكون جاهز.

- سنة بالكتير.

لا أعرف ماذا عليَّ أن أقول، ولكنني أكملتُ على ذلك المنوال.

- طب واضح كده إن في عرسان بتجيلك كتير؟

فهزت رأسها بالإيجاب، فأكملتُ قائلًا:

- طب وبتعملي إيه في المشكلة دي؟!
- بقابلهم عشان أريحهم وبعد كده برفضهم.
- هما يعرفوا إنك بتحبي واحد تاني؟!
- لمحت لماما كذا مرة ولكن مفهمتنيش.

في داخلي أضحك باستمرار، وأريد أن أستأذن وأدخل إلى الحمام حتى أبتعد عن الأنظار وأكمل، ولكن تلك الفتاة تحتاج إلى من يدعمها ويرشدها جيدًا.

اقتربتُ منها خطوة وحيدة، وأردت منها أن تنظر في عيني مباشرة وأن تسمعني بوضوح، فأصبحت في حالة تأهب كما أريد، ولون عينيها العسلي قد أصبح في متناولي يداعبني ويغمرني برونقه.

- لازم تشوفي حل للموضوع ده، لازم تقوليلهم ومتكونيش ساكتة وخاضعة أوي كده عشان يكون في أمر حاسم، لأن بين البنين دا صعب وصبره أصعب، وتقوليله ييجي يتقدم ويتكلم مع والدك ويفهمه ظروفه، وأهلك شكلهم ناس طيبين وحلوين زيك كده، أقصد متفاهمين وبالتالي ممكن يسمعوه ويكون الوضع أصبح مفهوم إلى حد ما.

حينما انتهيت، وجدتها تفكر وتتأمل في كلامي، وظللتُ أداعب عينيها الجميلتين بكل هدوء، فقالت بصوتها العذب وجمالها المعسول:

- بجد مش عارفة أشكر حضرتك إزاي، شكرًا جدًا بجد.
- حضرتك! طيب.

ولأنني لا أريد أن أنهي حديثي الآن، ولأنني أريد أن أتشبع من جمالها وصوتها الرقيق هذا، قلت لها:

- ممكن أكلمه؟!

تلك المرحلة وذلك الجنون لا يحدث كل يوم، وبالتالي فلنصل إلى أقصى درجاته.

- تكلم مين؟!
- حبيبك.

درجات الاندهاش والتعجب لديها قد أصبحت حد السماء، تلعب مع النجوم وتلوح مع العابرين المسافرين بالطائرات في سعادة، وبالتالي لم تتفوه بحرف وأمسكت هاتفها لتطلبه ومن ثم تعطيني إياه، فأدركتُ حينها بأنها قد وصلت معي إلى هذا الحد من الجنون المبالَغ فيه.

بعد الجرس البغيض قام بالرد، وقال بعفوية وعصبية واضحة:

- المتخلف اللي قبلتيه مشي؟

تمالكتُ نفسي ولم أضحك بشدة، ثم قلت له:

- المتخلف مع حضرتك.

عمَّ الصمت بيننا، فاحمر وجهها بشدة، وبدأت الحيرة تتلاعب بعقول من ينظرون إلينا في خلسة، ولازلتُ أبتسم وكأنني في حلم غريب الأطوار لا أريده أن ينتهي.

حينما بدأ يتساءل من أنا ويتلعثم بالكلام، قلت له:

- مش عيب تسيب حبيبتك تقابل متخلف زيي، وأنت قاعد كده!

أُشفق عليه كثيرًا، فذلك الوضع لن نراه حتى ولو بالأفلام، ولكن ما كان يحببني أكثر في التكملة والحديث ومجاراة ما يحدث وتلك الحالة الجنونية هو عيناها.

- أنت بجد المتخــ.. أقصد اللي المفروض تقبله؟!

- بالظبط.

حينما تأكد، لم يستفسر ولم يتساءل لماذا أهاتفه وكيف وصلت إليه، بل لم يوضح أي شيء سوى الإجابة عن سؤالي السابق.

- والله ما قاعد، أنا بشتغل وأنا بكلمك.

كلماته كانت بسيطة للغاية ولكنها عبرت بداخلي واستقرت، ولم يسعني سوى أن أدعي له بالتوفيق وأنهي المكالمة حينما ناولتها الهاتف، ووعدته بأنها ستوضح له كل شيء فيما بعد.

وقفتُ أمامها شارعًا بالانصراف، فقد مر الوقت، فوقفت هي الأخرى واعتذرت عما بدر من «عمرو» إذا كان قد تصرف تصرفًا لا يليق بي، ولكنني هززت رأسي بالنفي، ثم اقتربتُ من سحر عينيها أكثر، وقلت لها بكل خفة:

- طب ينفع أعرف اسمه كده ومعرفش اسمك لحد دلوقتي!

مدت يديها إليَّ ثم قالت بابتسامة هادئة رائعة:

- «مي».

فسلمتُ عليها ثم قلت لها اسمي، ومن ثم تحركت إليهم حتى نذهب.
من السلامات والتهاني والوعود بتكرار تلك الزيارة مرة أخرى عما قريب، هبطنا أخيرًا إلى أرض الواقع، ولكنني لم أفوّت تلك اللحظة بأن أنهي ذلك الخيال بنظرة أخيرة من عينيها وأجعلها نهاية كل شيء.

- عينيها حلوة أوي يا ماما!
- يا ما أنت كريم يارب.
- ولا ابتسامتها وكلامها الرقيق!
- يا مسهل الحال يارب، قول كمان يا «محمود»، قول يابني.
- بس عندها عيب صغير بس.
- مش مهم، نغيره يا حبيبي، عندها إيه؟
- مرتبطة.
- عادي يا حبيبي إحنا ممكـــ.. إيـــــه!!

لم أتمالك نفسي ووقعتُ على الأرض، فكلمتها الأخيرة كادت أن تقتلني من فرط الضحك، وبعد أن بدأت بالسباب قلت لها ما حدث بالتفصيل، وما أن لبثت حتى ثارت غاضبة، فذهبتُ إلى غرفتي سريعًا كي أنجو من ضرباتها.
الحياة لا تعطينا ما نريد، وكأنها تعلم منذ البداية بأننا نحب ذلك الشيء، فتفعل عكسه، وكأنها تريد أن تجعلنا في شقاء ومرض حتى نراها على حقيقتها بأنها فانية، لن نأخذ منها شيئًا سوى أعمالنا، ولأنني مؤمن أعلم أن البديل كان سيكون أكثر ضررًا، فالله سبحانه وتعالى يقول: {وَعَسَى

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} . صدق الله العظيم.

نعم، لقد أُعجبتُ بكِ كثيرًا يا «مي» ولو كانت الظروف متغايرة لجعلتك لي، ولكن ربما ما جعلني أميل إليكِ، هو أنني وجدتك مرتبطة بالأساس، فأردتك لي حينها، فنحن نحب الامتلاك وخصوصًا تلك الأشياء التي ليست في أيدينا.

لا أعلم ماذا حدث لي حينما رأيتك، ولكن سر الجاذبية كان يكمن في عينيكِ، فأصبحتُ أتغنى بهما وأناضل من أجلهما، ولن أخفي سرًا عن جمال شفتيكِ الهادئتين كشط الحياة الدافئ، فلقد غرقت في هواها وأدركتُ تفاصيلها حتى تمنيت سلامها وتذوق معناها، لعلي أذوب عشقًا وعطشاً.

لم أصبح بتلك الحالة الهيستيرية ورغبتي في الارتباط وأن تكون في حياتي فتاة تملؤها وتعطيها جرعاتٍ من الحب أكثر من الآن، فذلك الشعور لم يراودني منذ «بسمة» وها قد حضر مع تلك الهادئة في وطن الطيبة «مي»، فهي أرض تُزرع وتُسقى حناناً ودفئاً فتحصد مبتغاك ورضاك وكل ما تريده.

لو لم يكن لكِ حبيب لوددتُ أن تكوني ملكي.

****

القطعة الثانية

نظرتُ في عمق ليلة ظلماء فوجدتها تبتسم وتبعث طمأنينة حاذرة، وكأنها توحي لي بأن المستقبل ليس له معالم ما لم نكن معًا، وكأنها تنادي بين الطرقات على رشفة أمل تمنحها الحياة، وأن وجودي يعني بقاءها على قيد الحياة، وأن حكاياتنا ستخلد في أذهان أبنائنا، ولكنني كنت أحمقَ، أستنتج أشياءً حمقاءَ.

لم يكن لي دافع حينها سوى أن أحقق حلمها وأجعلها تبتسم دائمًا وأبدًا، ولم يكن لي أمل سوى أن أعوضها عن حنان أبيها المفقود، ولم يكن لي شيء، بل هي كانت كل شيء، ولذلك انكسرتُ عند الفراق.

الفراق!

اشتباه حاد بأننا قد فقدنا أرواحنا، وتلك الذكريات الجميلة التي أصبحت قاسية هي من تتحرك وتراوغ فقط، فنحن لا ننسى حتى وإن تحاملنا على أنفسنا وضربنا عقلنا بشدة كي يستيقظ في يوم جديد بلا وجع ولا أحلام سيئة.

نحن لا نقدر حتى على النسيان التام، مهما كنّا ذوي قوة جبارة، قادرين على المعايشة وكأن شيئًا لم يكن، فذلك مجرد هراء وبداخله أشياء تحترق،

فالأشخاص لا تُنسى مطلقًا ولكننا نأمل أن ننسى الحزن والوجع ونتعايش بشكل طبيعي فقط ليس إلا.

نحن لا نعلم من أين تكمن تلك البداية من بعد ما جاءت النهاية وبهذا الشكل المقيت، فكأن ما عشناه وما كنا سنحكيه لأولادنا ومن بعدهم أحفادنا كان مجرد مزحة سخفية ليس إلا، فهنا نضطرب ونسرح في بئر الألم محاطين بأكوام ممّا كنا نريده بشدة وما بين الواقع الأليم وفي منتصفهما تأتي الذكريات لتلعب دور الحسرة والعجز وقلة الحيلة.

لا أحب أن أخلط جميع الأوراق ببعضها البعض، فكلٌ منا ليس شعوره واحتراقه الداخلي كمثل الآخر، فلا يمكن أن تساوي ارتباطاً قد دام شهرًا بسنة أو بعدة سنوات، فالانكسار يزداد بازدياد الأحداث وكثرة السنوات، ولكنه أيضًا ليس بمقياس حاسم، فالعاشق الولهان المُتيَّم بنار الحب ينكسر بعد أي مدة، طالما قد وصل إلى مرحلة الغليان.

المُتيَّم في قاموسي هو من ينسى نفسه في سبيل إسعاد النصف الآخر، بل وكثير من الأحيان يعتبره الجزء الكامل ليس النصف فقط، ويعتبر حاله مجرد عابر سبيل قد وجد ضالته في من يحبه ويعشقه، فيصبح تابعاً بلا هوية ولا كينونة فيوافق على أي شيء يطلبه الهوى، حتى لا ينكوي بنار الفراق.

الجروح لا تُشفى سريعًا حتى وإن تخطيت المرحلة فيما بعد، فالخدوش دائمًا ما تركض خلفك، فتجدها بكثرة في بدايات المرحلة الجديدة، وتهدأ في المنتصف، إلى أن يأتي من يعوضك عن كل ألم قد تذوقته، فتلتئم الجراح.

ابتعد عن مراقبة من تسبب في معاناتك، فالفضول دائمًا ما يجعلك تفتح صفحاتٍ لا تعرف كيف تغلقها، والمطر الوفير يتشابك مع الأماكن المكشوفة المتعارية، فلا تغلق الدائرة عليك أنت ومَن حاول تحطيمك حتى تستعيد بريقك وتنمو وتزدهر في ساحات الحب الصادق.

أعلم أن بداية المرحلة الجديدة مع شخص جديد صعبة للغاية، فتلك الرحلة قد سبق لك وإن خُضتها بكل تفاصيلها الصغيرة، فبداية كل شيء جديد هي بطاقة العودة إلى الذكريات الأولى التي طالما حاولت نسيانها ولم تقدر، فلا تحاول أن ترهق نفسك، فالشخص الجديد إن كان وفيًا سيعلّمك بالحب والحنان كيف تنسى البدايات المزعجة، وسيحفر داخل عقلك اسمه ومكانته وأفعاله لكل شيء جديد ستعيشه معه.

خدعوك فقالوا ما الحب إلا للحبيب الأول، ولا يعلمون أن ما الحب إلا للذي يقدّره ويصونه لا من يخونه ويجرحه، فالحب النقي المبني على السراء والضراء ما هو إلا عهد ووفاء، من يسلك في طريقه يتمكن من ملامسة السعادة الحقيقية.

الفراغ يسهّل من عملية استرجاع ذكريات الماضي الأليمة، فأنت في حضرة بيت الخيال الخصب حينما يبدع في تركيب الأحداث وتنقية جودتها حتى تأتي إليك مدعمة بالحزن والبكاء والضيقة بأعلى صورة ممكنة، فلا تعطِ للفراغ المساحة الكافية كي يدخل ويستريح فتيأس وتنجرح، بل ابحث عن ذاتك، واذهب إلى عملك، واكتشف هواياتك، وكن أنت.

****

قبل انتهاء حصتي، دخل زميلي «حسن» الفصل كي يلقي التحية على طلابي ثم يسترسل ويحاول جاهدًا أن يكون خفيف الظل ولكنه سرعان ما يفشل في ذلك، ثم نظر إليَّ وقال في هدوء:

- «محمود»، بعد إذنك عايزك شوية بعد ما تخلص.

يا صديقي، لستُ في مزاج هادئ، بل لستُ على ما يرام لأستمع إلى أحاديثك المملة مما يجعلني أواجه خطر النوم وأنا معك، فكل ما يدور في عقلي في تلك اللحظة هو أن أتخلص من حياتي البائسة، فقد تعبتُ كثيرًا ولم أعد أتحمل المزيد.

- حاضر.

أنهيت وقتي معهم بعد تعب وجهد، فقد دقَّ جرس الحصة وقد حان وقت الاستراحة، فذهبوا مسرعين إلى الأسفل حيث الملعب والركض، ولكن «حامد» لم يذهب معهم وجلس يتأملني ويحاول جاهدًا أن يعرف كيف حالي، فوجهي يحمل علامات استفهام وحزن كثيرة، ولكنني أخبرته بأن لا يقلق فذلك إرهاق ليس إلا، فابتسم وانطلق.

ذلك الفتى دائمًا ما يثير حيرتي، فهو ينظر إليَّ نظرات إعجاب وفضول، فهو يحب العلم ويقترب ممن يعطونه بشغف وحب، مما يذكرني بشخص لا أحبه، قد كرَّس حياته في سبيل التعليم والتعلم، فأصبح مدرساً للتاريخ، يجاهد ويناضل من أجل لا شيء وكأن ما مضى من حياته كان هباءً ليس إلا، فالتاريخ دائمًا ما يعيد نفسه، ولا يوجد من أصحاب السلطة من يحاول أن يبدع في كتابة الصيغة المستحدثة ويتعلم من أخطاء

من سبقوه، فهي دائرة مغلقة بلا بداية أو نهاية، ويبقى الصراع وتبقى الوقيعة والفُرقة.

أحيانًا أريده أن يختار طريقاً آخرَ ولا يصبح مثلي، ولكني لا أعلم هل يريد أن يعيد ويجدد قصة «المنصوري» وتلميذه النجيب أم يحب شخصيتي وتفاعلي وآرائي فقط، أتمنى من صميم قلبي أن تكون الثانية.

- إيه يا «محمود» قاعد لوحدك ليه في الفصل؟ وبعدين مش قولتلك عايز أتكلم معاك شوية!
- معلش يا «حسن» مرهق شوية وتعبان.
- لا ألف سلامة عليك، تحب أجبلك حاجة؟!

شكرته على تلك اللافتة، فهدأ ثم بدأ يدخل في تفاصيل حياته وتلك المقدمة الافتتاحية ولم يراعِ شيئًا، ثم جاء إلى النقطة المقصودة، وقال بتأنٍ ويسر:

- إيه رأيك في «سميرة»؟

كنت أعلم بأنك ستحدثني عن ذلك الأمر يا صديقي، فنظراتك وابتساماتك الساطعة حينما تراها تفضحك وبشدة، ولكنني لن أجعلك تفهم بأنني أفهم شيئًا، فربما قد حان وقت الفكاهة ولو قليلًا، فقلت له في غموض وتعجب:

- «سميرة»! اشمعنا؟!

توتر واضطرب، فقال:

- لا عادي، بس أنا بثق في رأيك وبسأل مش أكتر.
- يعني.. كويسة.
- يعني إيه "يعني كويسة" دي؟!

أبعدتُ نظري عنه، وأخذت موضع الجدية والالتزام وفركت عينيَّ بكثرة، ثم قلت له بنبرة الاستنكار والوضاعة:

- يعني عادي يا «حسن»، مش الواو يعني، كويسة كويسة.

- بس يا «محمود» دي جميلة، أنت ليه بتقول عليها كده؟!

يا إلهي على انفعاله ونبرة صوته الغاضبة، فأردت أن أضحك ولكنني تماسكت، وبكل هدوء ولامبالاة، قلت له:

- خلاص تبقى جميلة.

فوقف من بعد أن كان جالسًا أمامي من أجل المحاورة والمشاورة، فضغطه قد ارتفع بسببي بكل تأكيد، فقال بغضب وانفعال ملحوظ:

- أنت بارد جدًا على فكرة، أنا ماشي.

ضحكتُ كثيرًا فتعجب، فأخبرته بمضايقتي له وأنني على عِلم منذ البداية بأن ذلك الحوار سيأتي لا محالة، فابتسم وعمَّ الهدوء من جديد كي نتحدث.

- يابني أنت مفضوح أصلًا بقالك فترة.

- يا «محمود» هسيبك وأمشي والله.

- خلاص خلاص، عايز إيه؟

- ما أنت عارف كل حاجة أهو، قولي أعمل إيه؟!

«حسن» هو المادة الخام للاستعجال واللهوجة وقلة الحيلة حينما يتعلق الأمر بالحب، فكان عليَّ أن أبتعد عن المزاح معه، وأن أرتكز على عدة مفاتيح كي أعرف فيما يفكر ومن ثم نصل إلى النقطة الفاصلة لنرى كيف ستتطور العلاقة بينهما.

- بتحبها؟
- ...
- لا، بص، مش وقته خالص إنك تضرب لخمة أو تاخد وقتك في التفكير، إنجز ورد بدل ما أقوم أنا أمشي.
- لا، خلاص والله، تقدر تقول.. يعني هي الحكاية.. البداية أقصد...
- أنا هقوم أمشي يا «حسن».

قبض على ذراعي كي لا أذهب مستحلفًا بالله أن أجلس معه، وما أن عدتُ نظر في عيني مباشرة، ثم أومأ رأسه بالإيجاب وقال:

- أيوة بحبها.

فكان عليَّ أن أسأله إذا كانت هي الأخرى تبادله ذات الشعور أم لا، ولكنه لا يعلم ذلك الأمر، فكل ما يريده هو أن يعرف كيف يعبر عن نفسه لها، ومن ثم تصبح هناك بداية في شكل العلاقة.

كان يجول في خاطري شيء هام لابد أن يفهمه قبل أن نعرف ما الطريق الذي يجب أن نسلكه في وضع كمثل هذا، فقلت له بكل هدوء واتزان:

- «حسن»، لازم تفهم حاجة مهمة جدًا، وهي إنك تكون داخل العلاقة دي وأنت جد جدًا لأننا في حضرة مَدرسة، وبالتالي مش عايز يكون في نظرات عليكم وكلام كتير يكتر، دي سمعة بنت وأنت راجل فاهم وواعي.

فهزَّ رأسه بالإيجاب مؤكدًا ومتفقًا على حديثي ذلك، وما أن بدأنا نخطط في الموضوع، عاد الطلاب من جديد وسلَّموا علينا، فخرجنا كي نكمل عملنا، على وعد بأن نتحدث من جديد ونخطط في وقت لاحق.

كان لدي الوقت الكافي كي أجلس في هدوء، وبكل تأكيد لن أفكر في موضوع «حسن»، فأنا متعَب للغاية، ولكنه مبخوت ومُرزق، فقد جاءتني فكرة جميلة حينما رأيت صديقتي وزميلتي «ميار» تتحدث مع «أفندي» فانتظرته حتى ينتهي وذهبتُ إليها كي نتحدث مع بعضنا البعض.

بعد السلامات والابتسامات، قلت لها في عجالة حتى لا نقف كثيرًا، فيجعلوننا على علاقة ونزفٌ لهم خبر خطوبتنا عما قريب:

- بما إنك قريبة من «سميرة»، فكنت عايز أكلمك في حاجة كده.

ابتسمت للغاية، ثم قالت ببهجة وفرح:

- ياه يا «محمود»، أخيرًا خدت بالك.

اعتلتني علامات التعجب ووقفتُ فجأة كعلامة استفهام في حيرة من أمري فقلت لها محاولًا أن أفهم ما تشير إليه:

- خدت بالي من إيه؟!

ارتبكت للغاية، ثم حاولت أن تغير من طبيعة الموضوع مؤكدة بأنها كانت تمزح ليس إلا، وهدأت كي تجعلني أكمل ما بدأته، فقلت لها بعفوية شديدة:

- «حسن» بيلمح إنه عايز يبدأ يتكلم معاها ويخطبها بعد كده، إيه رأيك؟

تغيرت علامات وجهها إلى الصمت وكأنها قد أصبحت فعلاً جامداً مبنياً على التعجب، ولكنها سرعان ما عدلت من وضعيتها ووضحت بأنها ليست لديها إجابة، فهن لم يتحدثن عنه يومًا ما، فأدركتُ طبيعة الموقف جيدًا وطالبتها بألا تحكي معها عن ذلك، فهزت رأسها بالإيجاب وذهبت، ولكنها ستقول لها وستعرّفها وهذا ما أريده.

أيُعقل ما يدور في عقلي؟!

«سميرة»!

ذهبتُ إلى صديقي «حسن» وقلت له ما حدث، ولكنني لم أذكر ما عرفته تجاه شعور «سميرة» لي، ولكنه لم يفهم ما فعلته، فقلت له بهدوء تام كي أشرح له الأمر ببساطة:

- دلوقتي هي أكيد هتقولها عنك، وبالتالي كده كأننا مهدنا لطريق وفرشنا أرضية بينكم، فكل اللي عليك تعمله الفترة الجاية أنك تاخد بالك من نظراتها ليك وتحاول تحس هل هي متقبلة الفكرة ولا لأ، وفي الحالتين هتتكلم معاها عشان تحط النقط عالحروف وتعرف الدنيا هتمشي إزاي.

شكرني على ذلك، فدعيت له بالتوفيق والخير ثم رحل وهو مبتسم وسعيد عن آخره، ولكنني وقفتُ عاجزًا لا أعلم هل ما فعلته على صواب أم خطأ، فأنا لا أريد أن أتسبب في مشاكل أو إحراج لصديقي، وكأن اليوم لن يتركني ولن يرحل عني سوى بالحزن والضيق والصداع القاتل.

لم أنظر إلى «سميرة» يومًا ما نظرة إعجاب أو حب، ولم يكن لي مشاعر تجاهها سوى صداقة عمل ليس إلا، فانخرطتُ أشفق على حالي وكأنني دائمًا في دوامة لا تنتهي، فمنذ البداية ومَن أحببتها كانت سيئة، ومن وجدتُ بداخلها الحب لم تكن في حسباني ولكنني أحببتها في النهاية ثم تركتني بلا أي مقدمات، ثم جاءت صفحتي السوداء التي أحاول محوها دائمًا ولا أقدر، ومن بعدها جاءت فتاة أُعجبتُ بها كثيرًا ولكنها كانت مرتبطة بآخر، ثم فتاة يحبها صديقي ولكنها تكنُّ لي مشاعرَ تجاهي، وكأن

القدر يعيد نفسه بشهادة التاريخ بلا أدنى هوادة، مستكينًا منكبًا على وجهي بلا أي طاقة.

كرهتُ نفسي وتملكني الإحباط، وحينما انتهيتُ من عملي، لم أعد إلى بيتي وتماشيت مع حالي إلى المكان الذي يتملكني فيه الإرهاق والتعب فأستريح أمامه، إلى الغموض واللاشيء دون تخطيط أو حسبان، فماذا فعلتُ حينما خططتُ لحياتي، فالمصير قد واجهته وتعايشت معه ولكنني لم أحبه.

لقد اخترتُ حياتي منذ أن لمعت عيناي بحُب التعلم ومن ثم الدخول في مجال التدريس بكامل إرادتي، ولكنني وجدته روتيني بحت لا جديد فيه، بل حتى المنظومة لا تساعد على التطور والتمكُّن مما يمدك بالطاقة الإيجابية فتصنع جيلًا سليمًا واعيًا، ولكن ذلك لا يحدث، فحينما تنظر إلى الجيل الحالي ستتأكد من عجز المنظومة عجزًا واضحًا منقطع النظير، فالوضع الحالي لا ينبىء بمستقبل مشرق بل سوادٍ كما حالي الآن.

حملتني قدمي بعيدًا حيث «كوبري عباس» وكأنني أداعب التاريخ لأتذكر مظاهرات الطلبة سنة ١٩٤٦ حينما خرجوا بعدما لم تحصل وزارة «النقراشي» على الجلاء والاستقلال التام من الاحتلال البريطاني، وبدأوا المسيرة من جامعة «فؤاد الأول» آنذاك و«القاهرة» حاليًا، للتعبير عن الغضب والكبت، فعبروا شارع الجامعة ثم ميدان الجيزة إلى كوبري عباس وما إن توسطوه حتى حاصرهم البوليس من الجانبين وفُتح الكوبري عليهم وبدأ الاعتداء على الطلبة فسقط البعض في النيل وتم اعتقال من حاصروهم.

حينما كان للطلبة رأي وفكر خاص يعبر عن حالهم ويدفعهم إلى الأفضل والتميز والنهوض بالوطن، ولكننا أصبحنا في لهو ومسخ، مبتعدين كل البعد عن الاختراع والإبداع، ولا نفكر إلا في خدمة أنفسنا وراحتها فقط.

وقفتُ أمام النيل حينما بدأت قدمي بالشكوى والنحيب، وتمايلت بجسدي قليلًا لأستند بكلتا يديَّ على عارضة الكوبري كي أخضع لسحر المياه وجمالها مع ضوء الشمس الرائع قبل الغروب، والهواء المتطاير الذي دائمًا ما يهبط على صدري ليمدني بالراحة والهدوء.

ظللتُ أترنح يمينًا ويسارًا مدعيًا السقوط، جاعلًا السبب الرئيسي ضغوطات الحياة وأعباءها، فلقد أصبحتُ أصارع نفسي وأغدقها بالشعور بالفشل، فأتألم ثم أبتسم ولا أبالي، وكأنني كقطرات الشمع التي أجعلها تهبط على يدي بعد إسالته متعمدًا.

- انزل يابني من على السور لتقع.

استوقفتني تلك الجملة، ذلك الجحيم الذي كان يعبث في عقلي المتعَب، لأتتبع صوت قائله، فأجده رجلاً عجوزاً يحادث شاباً في مقتبل العمر محاولًا منه أن يعتدل من جلوسه على عارضة الكوبري بتلك الطريقة المخيفة، فهو يخرج بقدميه تجاه النيل ليجعلها ترفرف بحرية إلى الأسفل مداعبًا السقوط والهوية، وما أن أنهى العجوز جملته حتى أمسك ذلك الشاب بيده اليمنى عمود الإنارة القريب منه، ولم يتفوه بحرف واحد، وما أن ذهب الشيخ في عجالة من أمره حتى أنزل يده من جديد ليضعها بجانبه، وظل يفعلها مرارًا وتكرارًا حينما يطالبه من يراه أن يعتدل وألا يجلس هكذا حتى لا يسقط بالخطأ، فجلسته مفزعة ولا تنم عن خير أبداً.

ملامحه كانت جدية بعض الشيء، فالذي أمامي لا يهذي ولا يمرح ولا يناكف الناس، بل هناك شيء ما يدور بداخله بلا هوادة أو رحمة، ولأنه يرتدي لباسًا معتدلًا أنيقًا فلن أصفه بالمختل عقليًا، ولو أن من يأتِه الاختلال ويصِبه أصبح هكذا الآن، ولكنني لن أصنفه هكذا، بل سأراقبه أكثر لأعرف ماذا ينوي.

ذهبتُ إليه بخطواتٍ ثابتة لا تدعو إلى القلق حتى وصلت إليه جاعلًا عمود الإنارة يتوسطنا حتى لا يذعر أو يتضايق فيفعلها، نعم يفعلها.

لم ينظر إليَّ ولكنه يعرف بكل تأكيد أنني بجانبه، فهو محاصَر ما بين ما يفكر فيه وما بين المنطق الذي لايزال بداخله وما بين الواقع والأحداث التي تحدث من خلفه وتلك الأصوات التي تطالبه بالنزول ومن ثم الرجوع إلى أرض الوطن.

هو يشعر بقفصي الصدري حينما يقوم بعمليتي الشهيق والزفير، وطرقعة الأصابع بلا سبب، وحركة المثاوبة الزائفة، ولكنه لا يمتثل لِما أريد من لفت الانتباه، فهو أشبه بالميت، لا يتحرك منه شيء سوى جفناه وصدره المتصدع ألمًا.

لم أنتظر طويلًا وبدأت في استجماع قواي حتى قلت له بنبرة هادئة:

- الحياة بقت صعبة أوي، تحس إننا بنجري في طريق ملوش آخر ولا حتى ملامح، مبقاش عندنا دافع لأي حاجة بسبب اللي بنشوفه وبنعيشه كل يوم وكأن الروتين مصمم يقتلنا بالبطيئ بلا رحمة.

لم يهتز ولم يتحرك، وظل ساكنًا كما هو، فأكملتُ على ذلك المنوال قائلًا:

- فانية ملهاش لزمة، وبرغم كده بتعذبنا وبتضغطنا أكتر وبتحسسنا إننا مش عايشين ولا حتى لينا وجود أو مستقبل.

كعادته لم يتجاوب، فنظرتُ إليه تلك المرة، واستطردت قائلًا:

- ساعات بفكر آذي نفسي وأتخلص من كل الضغوطات دي، بس دايمًا بفتكر إن المواجهة دايمًا بتبقى أفضل وإن الهروب مش من سماتي، دا غير إن لو عملتها معرفش إذا كان ربنا هيسامحني وهيغفرلي ولا لأ لأني استخدمت حاجة مش بتاعتي، منحت نفسي حاجة من اختصاصه وقوته، أنا مين أنا عشان أعمل كده.

ابتلع ريقه في هدوء، وكاد ينظر في عيني مباشرة ولكنه لم يفعل، فنظرتُ إلى الاتجاه الذي ينظر إليه، ثم قلت له:

- مالك؟

لم يجِب.

- دايمًا في سبب قاسي بيدخَّلنا في الحالة دي.

لم يتحرك.

- شغل ولا دراسة ولا حبيبة؟!

ابتلع ريقه من جديد، وكالعادة لم يتجاوب معي، فأدركتُ أن الوقت قد حان لكي أرحل حتى لا أثقل عليه وألا أكون ضيفًا غير مرغوب، وقبل أن أتركه قلت له:

- عارف، كان نفسي حد يتكلم معايا وقت حزني واكتئابي، يمكن يصبرني أو حتى يشيل عني شوية، بس مشكلتي إني مبعرفش أبداً،

ببقى محتاج اللي ييجي يقولي مالك أو يسأل حتى، ولما شوفتك حسيت إننا ممكن نتكلم يمكن نصبَّر بعض والمركب تمشي بدون غريق.

بعدما أنهيت حديثي، كنتُ على وشك الرحيل، ولكنه نظر في عيني مباشرة، تلك النظرة الشاردة وذلك الوجه البائس المتعَب الحزين، وعيناه اللتان تغرغران بالدموع جعلتاني أكمل ما بدأته، فسألته من جديد حينما قلت له:

- أنت كويس؟

أبعد عينيه عني، ثم أمسك بيده اليمنى عمود الإنارة جيدًا، وهزَّ رأسه نافيًا، ثم أسقطها بعد ذلك أسفله، وأغلق عينيه لتهبط تلك الدموع في سلام بعدما حاول كبحها كثيرًا، وحينما بدأ الضعف يتملكه، أمسكته بإحكام من ظهره مطالبًا أن يعدل من جلسته وأن يحرك قدميه إلى داخل الكوبري، وبالفعل فعل ذلك ثم أمسك بيده اليسرى عمود الإنارة من جديد، وقفزتُ لأجلس بجانبه، والعمود كالعادة يتوسطنا ولكننا في مأمن تلك المرة.

لم نكن ننظر إلى بعضنا البعض، بل كنتُ أنظر إلى المارة تارة وإلى العربات التي تتحرك أعلى الكوبري تارة أخرى، وكان هو في دوامته الخاصة التي سأكتشفها لاحقًا بكل تأكيد.

الانتحار!

كنت أحتقر ممن يُقدِم عليه ويرتكب تلك الخطيئة إلى أن فكرتُ في فعلها ذات يوم، فوجدتني أقسو على نفسي، ولا أعلم كيف بدأت الحكاية لأجد نفسي عالقًا هكذا بلا هوية أو فكر أو حتى منطق، فكيف وصلت إلى تلك

النقطة وإلى ذلك الحد وأصبحتُ ممن يفكرون فيه طالبًا الخلاص؟! من بعد ما كنت هادئاً متزناً، أرى من يُقدِمون عليه ليس لديهم عقل ولا دين، فمن أنا؟!

الاكتئاب يا سادة حينما يدخل ويعبر مكانك ويتراقص أمامك في محاولة منه ليُدخلك إلى عالمه المظلم الخفي فيجعلك تنظر إلى الأمور بسلبية مفجعة، ويعطيك الرؤية غير الواضحة للأحداث والأمور التي تحدث من حولك، ولهذا ينجرف فكرك وتبدأ تستمع أكثر إلى كيف ستؤول الحياة من دونك، وأن الجميع سيكونون بأفضل حال من غيرك، فيبدأ الصمت يعم، ويبدأ التخطيط يُنفَّذ بهدوء وعناية ومن ثم الرغبة في الانتحار، ويصبح الدافع الأساسي الذي يعبث بداخلك ليأكل كل ما هو متماسك ويرشدك إلى الصمت لا الكلام وإلى الظلام لا النور، هو إنهاء حياتك.

يبدأ عقلك بالاضطراب منذ اللحظة التي وجدت فيها نفسك تتحدث بأفكار سيئة تؤدي إلى الخلاص والراحة، لأسباب قد تبدو غير مفهومة أو حتى مفهومة، فليس ذلك هو العنصر الهام في القضية، بل انفصام الشخصية الذي قد بدأ يأخذ موضعه ويتفنن في إيجاد الصغرات ليجعلك غير مستقر ويحثك على التدمير الذاتي، ومن ثم تنتهي.

نور خافت ضئيل للغاية تحاول جاهدًا أن تضع يدك عليه لعله يرشدك ومن ثم فهم ما يدور بذهنك، ويعينك على تخطي تلك المرحلة، لعله يمتص غضبك ويقتل دوافعك المؤدية إلى الانتحار، لعله يرى حجم الألم الذي بداخلك، لعله يهتم، لعله يبكي معك ثم يأخذك بين أحضانه لتدفأ، ذلك النور هو الاستغاثة المكتومة والاستعانة بالآخرين، فقرار الخلاص

ليس سهلًا للغاية ولا صعبًا حينما يصبح كل شيء بلا طعم أو لون أو رائحة، ولذلك يصبح لديك خيط رفيع للغاية هو الآخرين وتوجيهاتهم البنّاءة أو الهدّامة والتقليل من الأمر.

بعد أن تصبح طاقتك النفسية والجسدية منعدمة، والإحساس بالذنب والخطأ دائم، واضطرابات قوية بالنوم، وفقدان الشهية، وحدوث نوبات فزع، والتقليل من النفس، والملاحظة الشديدة للتفاصيل، ونوبات هلع، والخوف الشديد من المواجهة، والخوف الشديد اللامنطقي، وصعوبة في التنفس، وصعوبة في التذكير والتذكر، وتسرُّع في ضربات القلب، وغيرها من الجوانب التي تحدث وتختلف من حالة إلى حالة، فيصبح الجحيم على الأبواب وتصبح الوحدة والفقدان هما الأقربان إليك، ومن ثم الشعور بالانسحاق والهزيمة، وأن الصراخ والبكاء الداخلي لم يعد لهما مكانٌ، وأن الثوابت والمعتقدات لم تعد كافية، وأن الأقربين إليك لم تعد في حسبانهم وسينسون سريعًا حينما تفعلها، وأن الحياة لن تقف عليك، بل متى وقفت من الأساس! وأن الاتجاه الذي يجب أن تسلكه هو...

عندما يتعذَّر وجود أي أمل يصبح القرار الرسمي لتلك الحالة هو الموت، فهم فقط يحاولون السيطرة على مصائرهم وتخفيف معاناتهم، فالمشكلات والأوضاع المختلفة التي تعيشها كل حالة من التنمر أو تجربة مؤلمة أو مشكلات أسرية قاسية أو فقدان حبيب أو الوضع الاقتصادي وتراكم الديون أو العزلة الاجتماعية، وغيرها من الأمور التي تنهك صاحبها وتجعله بلا طاقة أو مقدرة على تحمل المزيد، تدفعه إلى أن يستعجل قدره ومشيئة الله سبحانه وتعالى، فيتخلص من حياته بنفسه.

لازال بداخلك نبض وصوت يجعلك تتمهل قليلًا ولا تفعلها، لازال بداخلك من يجعلك تتراجع خطوة واحدة، بعد أن أقدمت على الكثير منها لتدب رصاصة الرحمة ومن ثم تذهب إلى العالم الآخر حيث الحساب، لازال بداخلك من ينادي بالاستمرار في هذا الشقاء لعل الوضع يتغير فيما بعد، لازال بداخلك عمر يتوسل إليك أن تصبر، "لَعَلَّ اللهَّ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا".

أنت أقوى من أن تذهب هباءً هكذا لغرض ما أو التعرض لضغوطات مليئة بالصعوبات القاسية أو حتى عدم الحصول على ما تتمناه وما تريده بشدة، فتنسحب وترحل ولا تبالي بأي شيء سوى الخلاص والراحة، وكأنك على يقين بأنك هكذا سترتاح فيما بعد!

ألم تسمع يا صديقي عن الآخرة وحسابها، وعن الرب وغضبه، وعن أهلك وبكائهم الغزير عليك؟! ألم تتعهد إلى مستقبلك وحلمك بالوصول إلى النجاح مهما كلفك الأمر؟! ألم تسمح لجسدك أن ينمو ويكبر ويحقق لك غايتك في المعيشة؟! فتريد أن تهدره معك وتمنعه من المواصلة! ألم تبكِ يومًا على فراق الأحبة؟! وتريد أن تفعلها وأنت تتوهم بأنهم لن يحزنوا ولن يبكوا عليك دمًا!

لماذا يا عزيزي؟!

سيحاولون مساعدتك على طريقتهم ومعتقداتهم، بل سينصحونك بزيارة الطبيب، ولكن يجب أن تعرف بأن توجيهاتهم والعلاج الممنوح من قبل الطبيب وتلك الجرعات التي ستأخذها، لن تكون مفعول السحر الحقيقي في العدول عن قرارك واتخاذك وضعية الاستمرار، بل

الفكرة تكمن في أن تجد نفسك وتبحث عن ذاتك، فالوضع سيتغير كثيرًا عند الوصول إلى تلك المرحلة، وإلى ذلك الدافع للاستمرار، وإلى هذا الشغف للاستكمال، وإلى تلك الحياة والنظر إليها بأنها فانية لا تستحق كل هذا التعب والألم والعذاب، فهي أبسط من ذلك بكثير، وهي أقل من أن تدوس علينا وتجعلنا بلا هوية أو شخصية حقيقية، وهي أدنى من أن تجعلنا ننهي حياتنا بالطريقة التي لا يحبها الله سبحانه وتعالى ورسوله.
بعد أن هدَّأت من روعه وعلمت قضيته ذهب كلٌ منا في اتجاه، كي نعود إلى حياتنا الروتينية بابتسامة هادئة تدعو إلى القلق والحيرة.

****

كانت تجلس في الصالة تنتظر وصولي بفارغ الصبر، فقد تمكن القلق منها مصاحباً الهواجس التي قد تحدث لي بعد ذلك التأخير غير المعهود بل عدم الرد على مكالماتها دعاها إلى النحيب والبكاء، وما أن سمعت صوت مفتاح يداعب باب المنزل كي يعبر حتى وجدتها تركض إليَّ لتنهال عليَّ ضربًا، وما أن هدأت حتى أخذتني في حضنها وهي تبكي حامدة الله على عودتي إلى البيت سالمًا.
ثلاث ساعات عن الوقت المألوف المعتاد أدخلتها في حيرة وقلق وترقب وخوف ثم الدعاء والصلاة من أجلي كي أعود بخير. ثلاث ساعات فقط كادت فيها تجن وتفقد توازنها ومن ثم عقلها من الرعب على ولدها الوحيد بأن يكون ليس بخير، فما بالك لو كانت تعرف فيما كنت أفكر!
ثلاث ساعات تدعو لي بالخير وأن أعود إليها سالمًا غانمًا وأن يحفظني الله من كل شر، وتهاتفني ولا أرد، فتكثر من الدعاء وهي على يقين في خشوع

تام بأن الله سبحانه وتعالى هو الحفيظ السميع العليم، سيحفظني من كل ضرر أو شر.

أرادت أن تعرف أين كنت، ولماذا لا أجيب على هاتفها، ولِما وجهي يبدو حزينًا شاحبًا هكذا، ومتى أصبحتُ بهذا البؤس وذلك الإرهاق الشديد، وما أن لبثت حتى قلت لها ما حدث منذ بداية ذلك الشاب الراغب في الانتحار إلى اللحظة التي وجدتها تحتضنني بقوة.

شابٌ لم يرغب في أكثر من الاستقرار بوظيفة ثابتة وأن يتزوج فتاة أحلامه التي لطالما أحبها ولم يعشق غيرها، وما كان له سوى أن يُطرد من وظيفته، وذلك لأنه تعدى بالسباب على عميل ما أثناء مكالمة قد دارت بينهما منذ فترة قليلة، فهو يعمل بخدمة العملاء لإحدى شركات المحمول، ولسوء حظه تم سماع المكالمة من قبل المسؤولين ومن ثم تم طرده مباشرة، ولكنهم لم يبالوا بأن العميل هو من بدأ السباب والتعدي عليه، ولم يبالوا بأن في ذلك اليوم قد تركته حبيبته مرغَمة على ذلك من قبل والديها، ولم يضعوا في الحسبان بأن تلك هي المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، لأنه قد فقد شعوره وانهار تمامًا ولم يجد من يشفق عليه ويقف بجانبه.

لم يعد لديه شيء ليبكي عليه، فمن كان يحاول وبشدة من أجلها قد تركته، ولم يتبقى له أحد سوى خاله المسكين، فهو من رباه وأكرمه بعدما مات أبواه في حادثة سيارة عندما كان يحبو، ولم يرِد أن يحمّله أكثر من ذلك، فاختار الخلاص والراحة.

لم يكن يدري أن تلك الاختبارات وذلك البلاء هو رسالة من الله له، كي يكون أكثر قوة وعلى يقين تام بأن الأفضل دائمًا سيأتي ولكن مع الصبر

والمثابرة، فتلك هي إرادته، وما تراه ضررًا لك قد يصبح خيرًا لك ولكنك لا تعلم.

يا إلهي! حقًا من يرى مصائب الناس تهون عليه مصيبته.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، طب سمعت منه كويس يا «محمود»؟ ووقفت معاه يا حبيبي؟
- متقلقيش يا أمي، أنا معرفش فعلًا جبت الكلام دا منين ولا الصيغة دي حتى، بس هو باين عليه غلبان أوي ودماغه لسه موجودة، هو مكنش عايز أكتر من إن حد يسمعه ويحس بيه، هو مكنش عايز أكتر من إن حد يقوله كمل ومتوقفش، يا ماما دا لسه مخلص كلية آداب من سنتين بس.

ماذا لو بعد فترة وجيزة وجد وظيفته التي يتمناها؟! ماذا لو حقق خاله وعده وقد وجد له الشقة المناسبة له؟! ماذا لو عادت له فتاته من جديد؟! لقد علمني درسًا لن أنساه طيلة حياتي، فمهما زادت الهموم والصعوبات تذكر بأن الله يراك وسيمنحك الخير عاجلًا أم آجلًا، فالرضا والحمد دائمًا ما يتبعهما الرزق الوفير، وأن الحياة لن ينطفئ نورها أبداً طالما أنك تحاول وتجاهد في سبيل إثبات ذاتك، وإنها فانية، لن تأخذ منها شيئًا حينما تنتقل إلى الرفيق الأعلى، بل ستبقى أخلاقك الطيبة وسيرتك الجميلة وأعمالك الحسنة حديث الناس، يرددونها بود وحب ثم يترحمون عليك ويقرأون لك الفاتحة.

في تلك الأوقات العصيبة، انتابني الفضول كي أسأل عنها ولا أعلم لماذا، وكان كل ما يجول في خاطري هو عدم توجيه السؤال بطريقة مباشرة، لأنني أعرف كيف ستفهم والدتي حبكته وإلى أين سترميه وتشير إليه، ولذلك قررت أن أتحدث عن حياة ذلك الشاب أكثر، وألّمح إلى حبيبته

بأنها ستقف بجانبه بإذن الله ولن تخذله، ومن هذا المطاف بدأت تتحدث عني ثم بعد فترة قليلة جاءت باسمها، فحمدتُ الله على ذلك، ثم بطريقة هادئة عابرة لا تنم عن الاهتمام قط، قلت لها:

- صحيح، إيه أخبارها؟ تعرفي عنها حاجة؟!

- سمعت إنها هيتقري فتحتها قريب.

لم يعد هناك أمل كي نجتمع سويًا يا «مي».

ثم أكملت حديثها بسخرية، حينما قالت:

- أكيد هيعزمونا على خطوبتها تقديرًا لمجهوداتك في لم شملهم.

- أراكِ تتمسخرين عليَّ و...

قبل أن أكمل جملتي، ركضتُ إلى غرفتي كالعادة حتى لا أتلقى قذائفَ من أشياء تأتي أمامها فترميني بها، فهي موهوبة للغاية في تلك الأمور، ولولا العمر لقدَّمت لها في سلاح النشان.

الاحتياج!

قاتل، مفزع، عذاب، مؤلم، كاسر، موجِع، قاسٍ، مرهِق، لم أعد أتحمله.

أحيانًا أرتعش بالليل حينما لا أجد من يهدّأ من روعي عندما تكثر مشاكلي وتزداد همومي، ولو أن هناك أحد يواسيني لأنام على صوته الحنون العذب فأداعب الطمأنينة لأصبحتُ في خير وسلام.

لقد رأيته بداخلك يا «مي» وسرعان ما كذَّبتُ حالي، لأنني أعلم بأن بدايتنا لن تكتمل، فالوضع عجيب مريب، لم أرَه حتى في المسلسلات الكورية، وكأنني في دوامة لا تنتهي، كلما تعلقت بإحداهن انزلقت مني وابتعدت بلا أي رحمة أو شفقة، وكأنني غير مرئي، لا أمتلك من الحظ

جنيهًا واحدًا، وكأنني سلعة فاسدة لا تستحق أن تتواجد وسط سلعات السعادة والهدوء وراحة البال، فمَن أنا لأفرح وأرقص ويصبح لي استقرار إلى حد ما؟! ومَن أنا لأعيش حالة حب من الجنون والمتعة ومن ثم تصبح شريكتي وحب حياتي؟! ومَن أنا لأقود ثورة تعليمية من أجل تنمية الوطن والإعلاء من ثقافته؟! ومَن أنا كي يأتيني والدي في المنام؟! فلقد اشتقتُ له كثيرًا ولم أعد قادرًا على شيء وحدي هكذا، فلقد كان سندي وتاج رأسي وقوتي في الحياة.

لقد قال لي ذات مرة حينما وجدني حزينًا للغاية، لأن صديق عمري قد قرر أن يتجاهلني ويبتعد عني شيئًا فشيئًا دون ذكر أسباب، أو لأنه إذ فجأة قد تعلق بأحد أصدقائه الجدد ونسي من كان يمضي معه الليل وآخره، من كان يلهو ويبتسم معه، من كان يستمع إليه ويداوي جراحه، بأن الحياة يا بُني متعِبة للغاية وتقسو علينا في كثير من الأمور فتجعلنا نقف مكتوفي الأيدي، منبطحين زاحفين وراء الألم، لا صوت لنا ولا دافع، ولكننا إن ظللنا هكذا، فلِما لا نموت ولا نبقى على قيد الحياة! إنه الأمل يا بُني الذي يحيي ما انبطح بداخلنا وتواجد بين التراب، هو الدافع الذي يأتينا قبل الاستسلام، هو الجندي الذي يأبى أن يُهان حينما يقابل عدو السلام.

تذكر يا بُني بأن الحياة ستبتسم لك كثيرًا يومًا ما، ولا داعٍ لأن نعلق فرحتنا على أشخاص زائلين راحلين، لا مأوى لهم ولا كينونةً، فقط خذ وقتك معهم ثم اجعلهم يمضون في سلام، لا تبكِ على من أراد فراقك ولم ينظر خلفه، ولا تبكِ على من يريدك في حالة ضعف وشفقة، فقط انظر في عينيه وقل له "ابتعد، فأنت لست صديقي من اليوم". تذكر بأن الحياة مليئة

بالمتاعب والغموض، فلا تركض وراءهما حتى لا يقتلان تفكيرك ببطء، وكن حريصًا بأن من يبحث عن الشيء الصحيح فسوف يكون حليفه، ولن يتخلى عنك طالما أن سعيك نبيل وشريف.

شرفٌ لك يا ولدي أن تحاول مرارًا وتكرارًا على أن تنبطح أرضًا رافضًا الوصول، فالحياة أشبه بالقرية الجميلة المزدهرة بالوَرد والعنبر، ولكنك تصر بأنه وَرد شيطاني مسموم فتخاف وترتعد ولا تمضي إلى الهدف الأساسي من الحياة، وكأنك ترفض العبور إلى بيوت المنطق والفكر الواعي المنفتح لمستقبل هادئ أملًا في النجاة.

أحتاجك يا أبي. أحتاجك وبشدة يا حبيبي.

****

القطعة المفقودة

بعد أن نادى عليَّ ثلاث مرات متتالية على حد قوله، نظرتُ إليه بابتسامة بلهاء كي يتحدث فيما يريد، ولكنه كان يريد أن يعرف ماذا بي ولِما أبدو شاحبًا هكذا وكأنني قد اتخذتُ السرحان صديقًا مقربًا لي، ولكنني طمأنته عليَّ كعادتي، فصمت وبدأ يتحدث عن موضوعه الشخصي، على الرغم من أنني لم أكن أريده أن يتوقف، بل كنت أريده أن يسألني مجددًا وسأحاول جاهدًا أن أعبّر له عمّا يؤرقني تلك الفترة، فأنا بحاجة إلى من يربت على كتفي ويشد من أزري للغاية.

- عملتلي إيه في الحوار اللي...

قبل أن ينهي حديثه قاطعته لأنني أعلم فيما يريد أن يتحدث، فقلت له:

- منا قولتلك يا «حسن»، أنا لمحت لـ«ميار» على الموضوع اللي كلمت...

قاطعني هو تلك المرة بغضب ملحوظ منزعجًا من إفشائي للموضوع، وأني لم أضعه طي الكتمان ولم أحصره داخل ثلاثتنا فقط، وقال:

- منا مكنتش عايزك تعمل كده.

ولكنني قلت له من جديد بكل بساطة أنها الصديقة المقربة لـ«سميرة»، ومدخل جيد لبداية الحوار حتى نعرف ولو قليلًا إن كانت تفكر فيه وتبادله ذات الشعور أو حتى تفكر في الموضوع عامة، فصمت ولم يجادل حتى أكملت ما بدأته، وحاولت أن أعرف لِما غيَّر رأيه هكذا وغضب على الرغم من أنني قد قلت له هذا الأمر من قبل، فتمنَّع ولم يعرف ماذا عليه أن يقول!

«حسن» هو ذلك الشخص الذي يتعصب فجأة ثم يهبط على لا شيء، فطيبة قلبه دائمًا حاضرة وبقوة.

لم تكن علامات الرضا قد أخذت موضعها الطبيعي أعلى وجهه البسيط، ولم يكن يعلم ما هي الخطوات القادمة التي يجب عليه أن يفعلها حتى ينال رضاها ويغتنم فرصته فتقع في غرامه، ولم يكن يعلم ولم أكن أبالي بما يفكر على غير العادة، وعدتُ إلى حريتي المقيَّدة في بحر أفكاري الضيق لأبحث عن ذلك الهدوء الشارد وسط ضوضاء الحياة.

بدأ يدعبس في ملامحي ويقلبها يمينًا ويسارًا وكأنه يريد أن يستنتج ويعبر مداخل ذلك المريض المكتئب داخليًا المبتسم ظاهريًا، وكأنه يريد أن يجعلني أتذوق دواء الاسترخاء ثم راحة البال، وبطريقة درامية وبدون أي مقدمات قال:

- هو ليه بحس يا «محمود» إنك عايز تصرخ؟!

وقعت جملته كالمطرقه فوق رأسي، ولكنني ابتسمت وسخرت منه على الرغم من أنني داخليًا أريد فعلها وبشده.

حاولت أن أشبه جملته تلك بالدراما الهندية القديمة المملة، ولكنه لم ينصت إلى جسدي المزيف وإيمائاته الخادعة، بل حدَّق في عيني مباشرة وكأنه يعرف فيما أفكر الآن، فمَن غيره يعلم تلك الحكاية وكيف انتهت! كنت أريده ألا يذكر ذلك الأمر الآن، وألا يداعب جوارحي ومعاناتي، ولكنه بكل هدوء قال:

- أنت منستهاش يا «محمود» ولا عارف تنساها، وبتحاول تمحيها من خيالك وذاكرتك وتعيش بكل هدوء ومش عارف عشان مش عايز تبان في موقف ضعيف عشان مش عايز تبان إنك مش قادر تتكيف مع الوضع الحالي.

وما أن سخرت واستهزأت من حديثه، حتى أمسك يديَّ جيدًا وأحكم قبضته، وقال بكل اتزان:

- عادي على فكرة، عادي إنك مش قادر تتكيف ولا عارف تنسى، مش بَدِينك بحاجة ولا بخليك في موقف ضعيف.

ثم أكمل حديثه قائلًا حينما بدأت تلك الابتسامة الساخرة تختفي وتزول رويدًا رويدًا:

- إدي لنفسك الفرصة إنك تنجرح وتبكي عشان تفوق، طول ما أنت متماسك كده أو فاكر نفسك متماسك أصلًا عمرك ما هترتاح، ساعات بنحتاج للحزن عشان نطفي نار الصمت القاتل الجارح جوانا، اللي قدامك دا ياما بكى لوحده على أبسط الأشياء وأثقلها، يا «محمود» ساعات بنحتاج للحزن عشان كمية القسوة اللي

استحملناها في حياتنا وعمرنا ما بكينا وقتها، لحد ما روحنا البيت وقفلنا على نفسنا عشان تنزل دموعنا براحتها وتغسل كل الألم دا.

كنت أنظر في عينيه مباشرة متمنيًا ألا أضعف، متعطشًا إلى المزيد من حديثه، فأكمل قائلًا:

- يا «محمود» أنت يوم ما نهيت الموضوع ما بينكم، تاني يوم كنت معانا في الشغل وبتضحك وبتهزر، وكأنكم عرفتوا بعض يومين مش سنتين

لا تبكِ، لا تفعلها الآن.

- خرّج الحزن والألم اللي جواك ومتحملش على نفسك أكتر من كده ومُر بلحظات الضعف ومتخجلش منها لأنها جزء من إنسانيتك.

لم أنطق حرفًا واحدًا حينما انتهى، وما أن ذهب وأخذ قبضته معه، هبطت تلك التي كبحتها كثيرًا وكأنها أصبحت تعرف الطريق الآن بعد حالات من التوهان واللامبالاة، وكأنها كانت تنتظر تلك اللحظة حتى تستريح وتتعافى، وكأنها كانت تنتظر من يأتي ويحطم تلك القوة الزائفة ويطلق العنان فيصبح الواقع أكثر حتمية وخضوعًا، لأن معرفة مدى عمق الجرح ومحاولة علاجه أفضل بكثير من التحمل الزائف والتألم الصامت.

لا يجب علينا بدافع إظهار القوة والتحمل أن نصنع من أنفسنا كائناتٍ لا تشعر ولا تحزن ولا تسمح بالبكاء، فلقد تربينا على معتقد سيىء وقاسٍ ألا وهو أن الرجال لا تبكي ولا تلين، بل يجب عليهم أن يتخذوا موضع التحمل والجدية منذ نعومة أظافرهم وحتى الممات، وكأنهم تروس في آلة لا تهدأ ولا تنكسر وبصلاحية مدى الحياة.

لقد أحببتها بكل جوارحي وتعلقتُ بها كثيرًا ولكنها لم تقدّر ذلك فتركتني وذهبت إلى من لديه سيارة وبيت خاص واستقرار أفضل مني، بل ووعدها بالسفر إلى الخارج أيضًا.

نعم، لم يكن لدي بيت خاص بي حينها، ولكنني أصبحتُ أمتلك واحدة بل وتقطن بذات العمارة التي أمكث فيها مع والدتي، وكأن الله قد أراد أن يعوضني عن رحيلها وتركها لي، وأن تصبح والدتي بجانبي حينما يشاء الله وأتزوج.

لقد باع الجيران الشقة بعد الانفصال بشهر واحد فقط يا فتاة، شهر واحد فقط، ولكنكِ لست أصيلة بل تبحثين عن المال والاستقرار والدخول إلى ساحات الرفاهية شيئًا فشيئًا، ولكني دائمًا ما أردت أن أواجهك من جديد لأعرض عليكِ سؤالًا واحدًا فقط.

هل سيحبك مثلما أحببتك يا «دنيا»؟

ولأنكِ لن تفهمي شيئًا يا عزيزتي، فهذا السؤال يتخلله عدة أسئلة لا تحتاج إلى أي إجابات بل إلى فهم وتريث وتدبر ليس إلا.

هل سيقدّر ذاتك ويرسم على وجهك تلك الابتسامة التي طالما فعلتها لكِ؟! ماذا عن الشعور بالأمان والاهتمام معه؟! هل يفعلها ويحبك في أسوأ أحوالك؟! ماذا ستفعلين لو أن وظيفته واستقراره لم يعد لهما وجود؟! هل فكرتِ في اختيار أسماء جديدة لأطفالك أم ستختارين ما اخترناه معًا؟!

الإجابات لن تكون منطقية في الوقت الحالي يا «دنيا»، فجرعات الوصولية والبحث عن الأموال لا زالت تنهش وتأكل في جسدك، ومفعولها سيستمر

إلى أن تصطدمي بالواقع المحتوم وتدركي أن السعادة الحقيقية تكمن في الحب النقي والتكاتف سويًا ضد الصعاب، لا أن تركضي وراء المصلحة ومن يدفع أكثر، فلقد أصبحتِ بالنسبة لي سلعة وقد بارت، وتعلمين جيدًا ماذا نفعل بالسلعة حينما ينتهي تاريخ صلاحيتها.

لملمت أوراقي سريعًا، ووقفت من مكان مجلسي في تلك الغرفة البائسة لأربعة جدران فارغة، فطلابي قد أخذوا استراحة هادئة واستعدوا جيدًا للهو والسعادة، ولم يبقَ منهم سوى حقائبهم المستهلكة، فقررت حينها الرحيل في هدوء.

أخذتني قدمي إلى حجرة المدرسين، وبعد الابتسامات وإلقاء التحية، جلستُ بجوار «حسن» ونظرتُ في عينيه مباشرة بتبسم وهدوء، ومن موضع السكوت قلت له بصوت هادئ متزن لا يسمعه أحد سواه:

- أنت عارف أن أمي حذرتني منها من أول مرة شافتها فيها، بس عشان دا كان اختياري رضيت بالأمر الواقع في سبيل إنها تشوفني سعيد وفرحان.

وما أن أبعدتُ عيني عنه، استطردت قائلًا:

- يا أخي دايمًا الأم السوية اللي بتحب ولادها أكتر من نفسها وعايزاهم أفضل منها بتكون معظم قراراتها صحيحة، بس إحنا اللي مبنشوفش وبنكون عُمي، لا وييجي المجتمع يفرض أعرافه في الحتة دي.. ويقولك طالما بتسمع كلامها يبقى أنت ابن أمه ومالكش شخصية، وبالتالي عشان ميتقالش عليك كده مبقتش بتاخد برأيها الطيب ولا بفكرها المبني على الفطرة.

ربت على ظهري، ثم صمت لثوانٍ حتى قال بسعادة بالغة:

- قالتلي في مرة البس الچاكت وأنت نازل، يمكن الجو يبرد جامد يابني، فمردتش وسكّتها بكلمتين، ولما نزلت وحسيت بالبرد القارص بصيت في الأرض وافتكرتها، وفضلت أدعيلها، وزعلت من نفسي إن إزاي مسمعتش كلامها، ومن هنا خدت قرار على نفسي بإن لازم أسمع كلامها بعد كده ومزعلهاش أبدًا.

ثم أتبع حديثه قائلًا:

- الله يرحمك يا أمي.
- الله يرحمها يا «حسن» ويرحم أمواتنا جميعًا.

الأم!

ليست كل من أنجبت ابنًا تصبح أماً، فالأمومة فعل قبل أن تكون كلمة، فهي العطاء والتضحية والحب غير المشروط والرحمة والاحتواء والإحساس، أما تلك التي تتصف بالغلظة والعنف وقسوة القلب والأنانية لا تستحق وصف الأمومة، فهي التي أنجبت وأهملت ولم تفهم دورها جيدًا في الحياة.

الأم هي جنة الله على الأرض، لا تنام ولا تهدأ إلا حينما تطمئن بنفسها على أهل البيت، فهي الحارس الأمين والمأوى لكل مضطرب مشتت مهزوز شارد الذهن متعب، هي الدفء والحنان والراحة والهدوء والجمال، هي السعادة، هي الوطن بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

ظللنا نتحدث كثيرًا ونضحك أكثر حتى جاء المدير، وطلب منا أن نذهب إلى عملنا، ولكنني كان لدي وقت كافٍ لحين موعد حصتي القادمة على

عكس صديقي الذي ذهب إلى حصته، بينما جلس المدير بجانبي كي يدخن سيجارته ويتسامر معي بعض الشيء.

لا أحب رائحة الدخان، ولكنه إذا عزم عليَّ بواحدة فلا أمانع، بل أحيانًا أشعلها معه!

حينما بدأ يتملكه عنصر منح النصائح لجلب المصالح، قال وهو ينفث الدخان في الهواء الطلق:

- زمان وأنا صغير لقيت اتنين من صحابي بيشربوا سجاير بعد الدرس، ولما شوفتهم لقتهم بيقربوا مني وبيعزموا عليا أدخن معاهم، بس طبعاً رفضت، وشوفت في عينيهم نظرة عرفت معناها بعد كده. تاني يوم لقيت الأستاذ بينادي وبيعاقبني على شربي للسجاير من غير ما حتى يسمع مني أو يديني فرصة أدافع بيها عن نفسي، ولأنه كان صاحب أبويا قاله ابنك بيدخن وشوية كلام تسخين، فطبعًا خدت يوميها أقصى أنواع الضرب عقابًا على إني بشرب سجاير!

ثم استكمل ذلك الخمسيني حديثه، وقال:

- قررت قبل ما أنام يوميها إن طالما اتعاقبت على حاجة معملتهاش يبقى من الأفضل إني أعملها عشان يكون للعقاب فايدة، ومن ساعتها بقيت باخد كل حاجة عِند، ومبقاش الصح من الغلط يفرق معايا طالما كده كده هتعاقب ومش هيتسمعلي.

لم أعلق على حديثه بل ظللت أنظر في عينيه مباشرة، وأتأمل لغة جسده لأرى الحسرة تأكله، وموجة الغضب الداخلية تجتاحه، ولكنه كان هادئاً مبتسمًا من الخارج.

- بس يا أستاذ «أفندي» حضرتك رسمت حياتك على مفهوم غلط زي ده.

دائمًا ما تعتليه ملامح الغضب حينما أناديه بذلك الاسم، ولكنه سرعان ما يعدل من ذلك، وما أن نفث بعضًا من دخانه حتى هدأ وقال:

- ساعات يا «محمود» موقف واحد بس يعدي عليك يخليك تخرج من طريقك السليم، وتفضل تخبط وتضطرب وتقع وتقوم لحد ما لحظة تخليك تعيد حساباتك وترجع شخص طبيعي تاني.
- وإيه هي الفرصة اللي كانت نقطة تحول بالنسبالك؟
- مراتي.

ابتسامة تلقائية اجتاحتني حينما تفوه بتلك الكلمة، وكأنه قد وجد ضالته فيها حينما أغدقته بالحب والحنان فغيرت بداخله مفاهيم كثيرة.

أحيانًا نتعلق بكومة قش أملًا في أن يكون لدينا فرصة أخرى نعوّض فيها أياماً قاسية مررنا بها، وأحلاماً قد ابتعدت كثيرًا عنا، ولكننا لانزال صامدين، متأهبين للعدول عمّا صنعناه من قرارات عكسية أثّرت في حياتنا.

حينما انتهى من سيجارته ذهب دون إلقاء تحية، فبدوت كما الظل ساكنًا بلا حراك، أراجع أفكاري واتجاهاتي، متأملًا إياه وهو يفر من أمامي ليذهب إلى عمله، بعدما أنهى حديثنا كعادته، فهو يتكلم حينما يحب ويصمت حينما يريد.

- «محمود»، إزيك؟!

«سميرة» تتودد وتفتح حديثًا.

لماذا تغضب حينما أناديك باسم والدك يا مديري؟!

- الحصة اللي جاية عليك إمتى؟!

حينما تتحدث معي يا «شاكر» أشعر وكأنك كنز من المعلومات والخبرات بلا نهاية، فتجاربك وحكاياتك تجعلني أصمت تاركًا لك الجلسة بأكملها، متأملًا بعناية طريقة حديثك.

- «محمود»؟!

- كمان خمس دقايق، عن إذنك يا أستاذة «سميرة» عشان طالع الفصل.

ليس هناك طريق يجمعني بكِ يا عزيزتي، ولن يكون بيننا حكاية أو ابتسامة كما نفعل دومًا تحت مسمى الصداقة، حتى أعرف في القريب العاجل كيف ستكون الحدوتة بينك وبين صديقنا «حسن».

يومًا ما تعلقتُ بابتسامة فتاة، ولأنني كنتُ صغيرًا أحببتها من ابتسامتها فقط، ولم أنظر إلى شكلها أو مكنونها الداخلي، بل كل ما كنت أريده هو أن تجلس أمامي طيلة وجودي معها بالدرس، بل تطوَّر الأمر إلى أنني حلمت بها، ولأنني كنتُ أتلعثم معها كثيرًا، فلم أتحدث معها قط ولم تعرف حتى بأنني أعشق ابتسامتها للغاية، ولكنها كانت تنظر إليَّ في بعض الأحيان وكأنها تعرف شيئًا، وكأنها تعلم بأنني ولهان مولع بنغزة الخد التي تجعلها في غاية الجمال، فهي تربكني حينما تغمز وتعدل مزاجي حينما يكون سيئاً، وتحرق قصائدي حينما أراها.

شاهدني في مرة من المرات أراقبها ذلك الذي ناديته بصديقي يومًا ما، ثم جاء إليَّ وبدأ يستفسر ويسأل ويمرح ويضحك، وما أن وثقت به حتى قلت له عن سر نظراتي لها ومدى شغفي للحديث معها، فأراد أن يساعد، ويا ليته لم يفعل، فقد بدأ ينظر إليها كما أفعل فلفت نظرها ذلك، كما كنتُ

ألفت نظراتها إليَّ، ولكنه تقدم عني بخطوة كبيرة حينما ذهب إليها وتحدث معها، بل وقال لها:- أنتِ تربكينني حينما تغمزين، وتعدلين مزاجي حينما يكون سيئاً وتحرقين قصائدي حينما أراكِ.

لن أفعل مثله يا «حسن». لن أكون مثله، ذلك الذي لطالما علق بذهني ووجدته دافعاً ضدي حينما يأتيني موقف مشابه لذلك.

لن أخذل شخصاً أحب من قلبه وأراد ولو حتى ربع فرصة للتواصل مع من يحب، فحينما يقع عليك الظلم وتفعل ما فعله الظالم الذي احتقرته بداخلك، فذلك دليل واضح على انتصاره ومدى تأثيره عليك، بل هو الرابح مرتين وأنت لازلت الشخص الخاسر.

الحياة مواقف وفرص، ومن ترك نفسه للاستعباد وأصبح مادة للسخرية والاستنكار عاش كمن فقد وطنه وأهله وظل عاريًا حتى الموت.

كانت والدتي تقول لي بأن الحياة قاسية ومتعِبة للغاية، ولأنك ابن وحيد ستكون متعبة وقاسية لثلاث مرات، وحين كبرتُ عرفت جيدًا ما كانت تشير إليه، ولكنني لا أزال أبتسم رغم كل ما يحدث لي، يكفي بأن ما ينبض قلبي تجاهه ويصبح لدي حالة من الإعجاب له يختفي أو يحدث شيء ما قاسٍ أو حتى مؤلم، والضحية دائمًا ابن «وحيد».

أحيانًا أشعر بالعجز وقلة الحيلة تجاه كل شيء، وأن ليس لي حق في السعادة أو راحة البال، بل كل ما هنالك هو أنني خُلقتُ من أجل العمل والطعام ثم النوم فقط، بل ويجب عليَّ ألا أنسى ذلك أبداً وأجعله محفورًا في ذاكرتي المتعَبة، لأن أمثالي لا تأتيهم السعادة ولو حتى قرروا شراء البعض منها، ولكنني دائمًا ما أدافع عن حق معيشتي وتواجدي بالحياة،

رغم علمي أن قوانين السادة الأفاضل ليس منصوص بها على ذلك، فمن له الحق في ذلك هو من يمتلك السلطة والمال، أما الباقي فهم في خدمة المجتمع والوطن.

لم يكن والدي يملك هاتفاً بالمنزل، وعلى الرغم من كونه مدرساً وله مكانته ووضعه، إلا أنه كان يذهب إلى مكاتب السفريات كي يسافر ويدرس بالخارج، ومن ثم يصبح دخله الشهري أعلى من دخله هنا فيوفر لنا كل الاحتياجات الممكنة، ولأنه «وحيد» وليس بـ«فريد» ضاعت عليه الفرصة وظل مكتئبًا لأيام كثيرة.

والدي كان معروف باسم «فريد» بين جيراننا وأحبائنا، وذلك لكي يكسر موجة النحس على حد تعبيره، ولأنه منذ الصغر كان جدي يحب اسم «وحيد»، أما عن جدتي فكانت تحب «فريد»، ولأن كلمة الرجل هي من سترتفع وتمضي قدمًا سُمي بـ«وحيد»، ولأن ذوق المرأة رفيع وجذاب، ناديناه بـ«فريد»، ولأنه في الأصل يُدعى «وحيد»، فكان الاتصال ينادي باسمه المكتوب في البطاقة، وأن عليه الذهاب إلى مكتب السفريات ليعرف التفاصيل اللازمة ومن ثم يجهز أوراقه ويستعد للسفر، ولأن جاره لا يعرف أحدًا باسم «وحيد» قفل الخط، وما أن هاتفوه مرة أخرى حتى غضب، ومن تعلية صوته وأسلوبه الفظ لم يعاودوا الاتصال به مجددًا، وبعد مرور أسبوعين أو أكثر أثناء زيارة لهم بعد دعوة منهم على الغذاء، أفصح جاره عن تلك الواقعة للهذي والمزاح ليس إلا، وأن الأرقام الخاطئة أصبحت كثيرة تلك الفترة وتنم عن المضايقات والمعاكسات وقلة الوعي، ولكن والدي كان بلا منطق أو

حراك أثناء حديثه، فدبَّ الذعر في قلوبنا، وبعد صمت الجميع، طلب منه أن يلقي عليه الاسم من جديد، وحينما قاله دفن رأسه بين قدميه ثم بدأ بالنحيب، فركضت والدتي نحوه لتواسيه وتهدأ من روعه، وظل صديقه وزوجته مذهولين، ينظران إلى بعضهما البعض دون حديث.

النحس!

عائلتي في أبهى صورة.

كنتُ صغيرًا حينما سألني والدي عن حلمي عندما أكبر، ولكن وقتها لم يكن لدي إجابة، ولكنه كان يريد مني أن أصبح طيارًا، لا أعلم لماذا ولا أعرف كيف، ولكنه كان يريد ذلك، وعندما وجدتُ ضالتي في «المنصوري» وأردتُ أن أصبح مثله، ذهبتُ إليه وقلت له "أريد أن أصبح معلمًا مثل معلمي «أحمد المنصوري»"، ولأنه أب واعٍ وذو عقلية متفتحة ودائمًا ما يحترم آرائي، لم يتفوه بشيء كما أنه لم يفرح ولم يحزن، ولم أفهم وقتها لِما لم يبدِ رأيه بالموضوع ومن ثم يتشاور ويتحاور معي كما يفعل دومًا، ولكن بعد وفاته بمدة ليست بالقليلة وأثناء حديثي مع والدتي عنه، تذكرت ذلك الموقف وقلت لها "لِما فعل ذلك؟"، فقالت بكل هدوء واتزان بأنه معلم أيضًا يا بُني، وكان يتوقع منك أن يكون هو الملهم لك وليس مُدرسك، ولذلك قد حزن قليلًا، ولكنه تقبل قرارك بصدر رحب ثم دعى لك بالخير والتوفيق.

ربما قد أحزنك كلامي وفهمك لقراري بطريقة خاطئة، إلا أنك بالنسبة لي جوهرة لا تُقدَّر بثمن، فكيف ترى أنه ملهمي وأنت قدوتي وأملي وشغفي بالحياة؟! وكيف ترى أن حبي للتدريس نابع من «المنصوري»

فقط؟! فالبداية كانت معك بأسلوبك وبفهمك لعقلية الطالب، فهذا ما ساعدني كثيرًا على تكوين معنوي لوظيفتي المستقبلية، ولكن يا والدي، أتعلم شيئًا؟ لقد أخطأت حينما اخترت تلك المهنة، فهي شاقة ومتعبة للغاية، ولا يأتيك التقدير المطلوب إلا من الطلبة التي تقدر حجم عطائك وتعبك وصوتك المنبوح دائمًا، وكل هذا ولم أتكلم عن المنظومة التعليمية ككل أو الحديث عن المرتبات الممنوحة!

لنا الله يا والدي.

****

- نركز يا جماعة شوية الفترة اللي جاية إن شاء الله، الامتحانات بقت عالأبواب.

من بداية الطابور الصباحي وأنا أرى البعض من طلابي يتهامسون ويضحكون حينما ينظرون إليَّ، وغالبًا لا أعرف ماذا يحدث إلا إذا تطرق الأمر إلى ما أفكر فيه، ولكن لا أتوقع ذلك، فهم لا يعرفون في أي يوم ولدتُ ورأيتُ الحياة، ولذلك فالموضوع بعيد كل البعد عن الاحتفالات بعيد ميلادي، فما هو الأمر إذن؟!

تجاهلتُ الاستفسار عن سر سعادتهم المبالَغ فيها، وابتسمتُ معهم لأضيف القليل من المرح ولأعبر عن عدم انزعاجي بما يحدث وتلك الحركات غير المألوفة، لعل عيد ميلادي هذا العام يصبح جديدًا وذا طابع خاص لقلبي، ولذلك لن أحضَّ من ابتسامتهم وفرحتهم العارمة، إلا إذا كان عيد ميلاد صديق لهم أو حدثاً آخر، فحينها والله لأجعلنه يومًا سيئًا عليهم جميعًا ولن أرحم فيه أحدًا، فإما أنا أو الطوفان من بعدي.

بعد أن أنهيت حصتي معهم بسلام، ابتسمتُ بداخلي، لعل لحظتي قد حانت وسيأتون الآن بالشموع ومن بعدها الهدايا، وسأحاول جاهدًا ألا ألفت الانتباه بأنني قد توقعتها، بل هي مفاجأة لم تخطر على بالي قط، ولكن سرعان ما تلاشت تلك الابتسامات ولم يحدث شيء مما كنتُ أفكر فيه، فلقد ذهبوا إلى ساحة المدرسة حيث ميعاد الراحة وتناول الفطور.

اللعنة عليكم جميعًا.

ذهبت إلى حجرة المدرسين في صمت تام وبداخلي شرارة تريد أن تخرج، فوجدتُ «أفندي» أمامي، فهدأت قليلًا حتى لا يكون يوم ميلادي هو يوم إقالتي ورفَدي.

عزم عليَّ بأن أتناول معه، ولكنني بلا نِفس لأي شيء فرفضت طلبه متمنيًا له الهناء والشفاء.

- عارف يا «محمود»، أبويا لما كان يشوفني وأنا باكل كان لازم يقولي متتسرعش وكل على مهلك عشان شكلك قدام الناس.

أتتجمل فيه الآن؟!

ثم أكمل حديثه بضحكة ثقيلة مصاحبة لسخرية متواضعة:

- بس كان عادي أنه يصلي لربنا بسرعة.

دائمًا ما أجد نكهة غريبة في حكاياته، وكأنه يدرس جيدًا ما يقول، ويفكر جاهدًا في مواضيعه، ولا يهدأ إلا حينما يتكلم ويخرج ما لديه.

قلت له وكأنني قد أصبحتُ مثقفًا لوهلة:

- التناقض دا بنعمله كل يوم على فكرة، لما الأتوبيس يبقى مليان على آخره وإحنا قاعدين فيه وبنبقى متضررين من الناس اللي لسه بتطلع وتبدأ

الزحمة، بس عادي جدًا وإحنا بنركب المترو الصبح وبنحاول في وسط الزحمة إننا ندخل رغم أن مفيش مكان جوه، أو نشتم ونسب في الواسطة بس لما تجيلنا بتبقى على قلبنا زي العسل، وغيرها من الحاجات اللي مبناخدش بالنا منها لأنها تقريبًا بقت جزء لا يتجزأ منا في الزمن ده.

نظر إليَّ في تعجب ثم هز رأسه مبتسمًا ونفث دخان سيجارته ثم غادر كعادته.

التناقض!

هو كل شيء يتحرك بداخلك لتحبه وتذمه، تفعله ولا تريده، تدافع عنه وتطالب بإسقاطه، تغني له وتحتقره، هو كل هذا وأكثر، هو أنت حينما تفعل ذلك عن عمد، أو تتذكر أنك فعلته من دون قصد، هو الفكرة التي تتعارض مع فطرتك، وهو التوجيه حينما تقنع أحدهم بخطأ ما دائمًا ما كنت تفعله، هو المقصد الذي تبني عليه غرائزك، وهو الركن الذي تخشاه وتتجنبه، هو الدافع وراء استعدادك لكي تترقّى إلى منصب أعلى، وهو النكرة اللاشيء حينما تصبح بوجه واحد.

لا تسمو حياتنا من أي تناقضات، فكم مرة تعارضت مشاعرك مع مبادئك ومعتقداتك؟! وكم مرة فعلت هذا بدافع الظروف رغم أنك قلت عنه مسبقًا بأنك لن تفعله أبداً؟! ولا يكون من السهل أبدًا أن نرى تناقضاتنا الخاصة، بل تكمن الفكرة في ملاحظة أوجه التضارب لدى الآخرين، ولكن لا تنسَ أيضًا أنك مملوء بالتناقضات.

ربما لم تصدق حالك وأنت تهاتف شخصًا ما لا تريد أن تحادثه، ولكنك أخذت قرارك وقمت بالموافقة على المكالمة، وأصبحت تتكلم معه وكأنه

أخ لك، وتثني عليه وتضحك معه وتصنع من المداعبات والأحاديث المرحة جليساً ثالثاً لكما. وأنت يا من تدَّعي الصدق، تكذب على مديرك حتى لا تتعرض للجزاء. وهذا الذي يدخن بشراهة ويعاقب ابنه بشدة حينما يفعل مثله. وذلك الذي يدافع عن حقوق المرأة ويتحدث مع كل فتاة يقابلها بكلام معسول عدا زوجته.

التناقض يدل على وجود خلل ما بداخلك غير مُسيطَر عليه، وكأن بك علة تأكل المنطق وتجيز على عقلك من أجل أغراض شخصية ومكاسب، وعلى الرغم من ذلك يعيش البشر بسلام مع التناقضات بسبب قدرتهم على فصل الأمور عن بعضها البعض، ولكننا بالنهاية عالقون في التناقض ولن نخرج منه أبدًا سواء كان حجم التناقض لدينا منخفضاً للغاية أو مرتفعاً بشدة.

أثناء خروجي من حجرة المدرسين وجدتُ «حسن» ينتظرني بالخارج كي نتحدث سويًا، وما أن وجدني أمامه حتى ابتسم للغاية ثم قال:

- هقابلها انهاردة بره وهنتكلم سوا في كل حاجة.

قلبه كان يرقص فرحًا ولولا الجاذبية لوجدته طائراً يحلق في الفضاء ويغني بكل سرور، ففرحت له وتمنيت له كل الخير والسعادة معها وأن يكون اللقاء مهضوماً وخفيفاً على القلب، ومن ثم الاتفاق على الخطبة وتلك الأشياء المعهودة المعروفة، وأثناء حديثنا قاطعنا «حامد عبد الرحمن» وأراد مني أن آتي معه في الحال لغرض ما لا أفهمه، ولكنني اعتذرت له كي يمهلني بعض الوقت لأتحدث مع صديقي، فابتعد عدة خطوات وظل يراقبني وهو يبتسم ويضحك، وقبل أن أنهي حديثي مع «حسن» جاء إليَّ من جديد وطالبني بأن أحضر معه الآن ولن أندم على

ذلك مطلقًا، فوجدت صديقي يطلب مني أن أذهب مع طالبي النجيب على أن نتحدث مع بعضنا البعض مرة أخرى.

أمسك يدي بعنفوان وزاد من سرعته كي نذهب إلى الدور الثاني، فعرفت أن الاحتفال بعيد ميلادي قد حان، ولكنني زينت وجهي بالغموض وعدم الفهم حتى أصبح متفاجئاً دون علم بأي ترتيب أو إيضاح لأي شيء، ولكن عند دخول الفصل وجدت شيئًا لم ولن يخطر على بالي أبدًا في أن أفكر فيه.

وجدتُ روحًا لم أتعرف عليها منذ البداية حتى فتنتني بسحرها وابتسامتها المعهودة التي لم أرَ مثلها أبداً.

وجدتُ الصدمة والدهشة تملأني، فوقفت مذهولًا ليس بيدي شيء لأفعله، ولا أفكر في أمر عدا تلك البسمة وتلك الرمقة التي لن أنساها قط.

هل أحلم أم ماذا؟! هل هي أنتِ أم ماذا؟! كيف حدث ذلك؟!

بكل ابتسامة وخجول تام قالت أمام مرأى ومسمع من طلابي:

- إزيك يا «محمود»؟

لم أتفوه بحرف، وجملتها لا زالت تُعاد مرارًا وتكرارًا داخل جمجمتي المتعَبة للغاية، وكأنني أدمج صوتها الهادئ الصغير بصوتها العذب الحالي، حتى أطلقتُ العنان وقلت لها بصوت غير واضح منهَك متعَب:

- «بسمة»؟!

****

قطعة من الماضي

أحببتُكَ منذ اللحظة الأولى وأنتَ لم تكن تعلم شيئًا عن عالمي الخاص ودربي بالحياة، فنحن لم نتحدث سويًا سوى مرتين، الأولى كانت أثناء دخولك إلى الفصل عندما هززت رأسك لي وألقيت السلام فعبرتَ أفكاري ووجداني، والثانية وسط الزحام عند "الكانتين" عندما أخذت مني الأموال لتُحضر لي الطعام حتى لا أدخل وسطكم وأتعرض إلى مضايقات سخيفة بينكم، فشكرًا لك يا «محمود» على هذا.

تبًا لكَ ولنظراتكَ القاسية لها وأنتَ تتشفى فيها وتغمرها بعيون دافئة كما لو أنك تأكلها أكلًا ولا تمل من مشاهدتها، فأنا لا أعلم لِما هي وكيف بدأت حكايتكَ معها وهي تتلوى وتتلون أمام الجميع هكذا، أهذا ما يعجبك أيها التافه؟!

ولأنك رجلًا بنظري أحببتكَ وأحببتُ شهامتك للغاية، فلقد علمت أنك دافعتَ عني حينما نطق شخصٌ ما اسمي وقال بأنها فتاة غير مهذبة بل ضائعة في بركة من الرخص والنقصان، ولكنك لم تصمت بل هاجمته على الفور وأطلقت عليه نيران الغضب حينما واجهته بمعصيته بعدما لم يطَل

مني شيئًا ولم أصبح صديقته كما كان يريد، فأخذ من الانتقام دافعًا مقرّرًا إقصائي، ولكنك يا حبيبي كنت له بالمرصاد، ولن أنسَ لك هذا يومًا.

يا ليتني لم أعرفكَ حتى ولم أشاهدكَ يومًا، كي لا أرى تلك النظرات التي يتخللها حب وشجن وعناق، وكأنك تداعبها وتطلب منها أن تبادلك ذات الشعور، بل تحنَّ وترضى بك وتبدأ معك رحلة جديدة وقصة جميلة تُكتب في مواضيع الحب والإشراق، ولكنك لا تفهم شيئًا على الإطلاق ولا ترى الأمور في نصابها الصحيح، بل كل ما هنالك هو أنها أربكت حساباتك ونظرت إليك في مرة من المرات بلمعة المراهقين فجُننتَ وأصبحت مثل الباقين تزحف وتلهث وراءها، وهي تتكبر وتتلون ولا تعطيك الاهتمام المطلوب أو حتى الكلام الطيب، بل تتدلل وتتجمل وهذا كل ما يعنيها أو تهتم لأمره، أما أنتَ فلا شيء بالنسبة لها.

أتتذكر حينما قلت لي بأن ابتسامتي رائعة؟ فابتسمتُ لك واحمررتُ خجلًا وقتها، فانطلقتَ دون أن تكمل ما بدأته أو حتى تتحدث كما ينبغي عليك فعله، كما لو كنت أحمقَ لا يعرف كيف هي المغازلة وكيف تستمر بها، أو ربما لستُ أنا الشخص المطلوب، نعم نسيت، فأنا لستُ هي، وهي من تحبها، فلتحبها يا حبيبي وعليك اللعنة، فأنا جوهرة خالدة لا يقتنيها سوى من يعرف قيمتها ويحبو لها ويعشقها من صميم قلبه، ولكن أتعرف شيئًا؟ ربما تحتاج إلى من يعلّمك كيف تحب، وكيف تختار من تحافظ عليك وتفرح لفرحك وتحزن لحزنك، لا أن تمحو عقلك وتذهب وراء أفكارك البغضية وقلبك المريض حتى تحقق ما تقولون عنه المعادلة الصعبة، حينما تتخذ كل دفاعاتك واتجاهاتك لها كي تشعر بك ومن ثم تحبك، ولكنها

لن تفعل ذلك أبداً، هذا وعد مني، ولذلك سأعلّمك الحب، حسنًا سأعلّمك.

ربما تتمنى أن تحادثها كل ليلة في حين أدعو لك في كل صباح أن تكون حبيبي وتبتسم لي مثلما تفعل في أوقات متباعدة، وربما قبل أن تنام تحلم بشكل حياتكما معًا بعد أن تحبك وتعانقك وتغمرك بالأمل والحنان، في حين أتمنى من الله ألا تنكسر وتضعف حينما تخذلك وتقصف كل أحلامك وتيمُّمك بها، وربما لن يحدث كل هذا لأنك أحمق، تؤمن بالتضحية من أجل لاشيء، وتزهق روحك في سبيل الاستعباد والتمادي في حب ضعيف للغاية لا يسمن ولا يغنى من جوع، ولكنني في نهاية المطاف سأنتظرك حينما ينتهي دورك بحياتها وتتخلى عنك في لمح البصر، ومن هنا سآتي ليصبح دوري فعَّالاً، وأداوي جراحك وما فعلته بقلبك، وآمل من الله ألا يطول الوقت وأن أسعفك قبل فوات الأوان، فالعمر يمضي وسنواتنا الثلاثة لم يتبقَّ منها سوى سنتان مقصوصٌ منهما أيضًا إجازات نصف العام وآخره، فابدأ بالحديث يا هذا، واصنع معروفًا وفكر كما ينبغي أن تفكر، وابتعد عمَّن تجدك هزوًا ولعباً، وحِب من تحبك كي يطمئن قلبك ويرتاح عقلك، واعرف أن الحياة لا زالت في بدايتها، ولا تحتاج إلى كل هذا الكم من التعب والإرهاق، فتكلم وابدأ أيها الأحمق.

ولأنك لم تفهم بعد، أعطيتها كتابك لتستمر في رحلة إقصاء ذاتك من أجل أن تكسب نقاطاً جديدة تضيفها إلى نقاطك الفاشلة الضعيفة التي لم تبُء بشيء معها، كما لو أنك تبني هرمًا من التفاؤل والحب والأمل والسعادة لتأتي هي وبضربة واحدة لتعيد الأمر إلى بدايته، فتعيد البناء من

جديد متوسمًا فيها أن تعود إلى صوابها وتصبح في تفكيرها، ولكنك أبله، لا تحس ولا تشعر، ولو أنك كنت تبني في الموضع الصحيح، ولو أنك كنت مع شخصٍ يقدّر ما تفعله وما تريده، لكان الوضع مُغايراً تمامًا عمّا يحدث الآن، ولكنني لازلت على عهدي لك بأن أحميك من ضعفك ومن أن تنكسر بسببها، متمنية لك كل الخير.

لا أعلم ما الذي أصابني وقتها، فذهبتُ مسرعة تجاهه بعدما أعطاها كتابه وانتظر العذاب بكل حب من ذلك المعلم السادي، فلم أتحمل ذلك المشهد، فركضتُ نحوه ووضعت كتابي أمامه، ونظرت في عينيه بكل حدة وقسوة وذهبت، فصُدم ولم ينطق حرفًا واحدًا، وعندما دخل من لن يرحم وسيضربني ضربًا موجعًا قال جملته المعذبة، فرفعت يدي لعدم وجود كتابه معي، وذهبت إليه بكلتا قدميَّ وبكامل إرادتي منتظرة العذاب والضرب المبرح ولم أبالِ بشيء سوى بأن ينتهي ذلك الجحيم سريعًا.

هل أنت هادئ الآن وبخير أيها الأحمق؟! هل لفت نظرك ما فعلته أم لازلت جبانًا تتوسم الخير في فتاة لا يهمها سوى ذاتها وحياتها فقط؟! هل تضايقتَ لضربي أم لازلت تنتظر أن تُعجب بك وبشجاعتك المفرطة لتتكلم معها دقائق معدودة؟!

لقد فعلتها من أجلي وليس من أجلك حتى أعرف إن كان من أحببته يومًا يستحق كل هذا العناء والتعب أم لا، وذلك لأنني قد اتخذت قراري، فإما أن تقدّر ذاتي بعد ذلك الموقف أو ستكون كخيال المآتة بالنسبة لي، أقسم لك بأن ما حدث سيكون إما بداية لرحلة بيننا ومن ثم خوض

مرحلة جديدة في حياتنا أو نهاية كل شيء، فأتمنى أن أراك رجلًا تستحق ما فعلته من أجلك، حتى لا أندم أنني أحببتُ شخصًا مثلك يومًا ما.

****

كان ينظر إليَّ نظرات خوف وحزن، وظل يرمقني طيلة الحصة ولم يهدأ من متابعتي وأنا أتألم من شدة الضرب، ولم أكن أتصنع حتى، فالضرب كان موجعاً للغاية ولكن تلك مسألة مفروغ منها، فوالدي سيأتي معي في الغد، ولن يتركه أبدًا، ولكن فلنركز على ما هو أفضل وأجمل، وهي تلك العيون المليئة بالوجع والقهر، يا إلهي كم أحببتُ وجهك وأنتَ على هذا الحال، يا ليتني ضُربت من فترة كبيرة لأراك بتلك الانفعالات والشدة وتلك النظرات البغيضة إلى ذلك السادي وكأنك تريد أن تبتعله، بل تعذبه لا أن تقتله فحسب.

ركض إليَّ بعدما انتهت الحصة، فتعجبتُ للغاية ولكنني لم أوضّح ذلك، بل كنتُ أرمقه بنظرات لا توضّح بأنني أنظر إليه، وما أن سألني عن حالي حتى اقترب مني، وتلك هي المرة الأولى التي يقترب مني هكذا، قلت له أنني بخير وعليه ألا يقلق، فعرض عليَّ أن ننزل إلى الطبيبة لكي ترى يديَّ، ولكنني رفضتُ ذلك، فوجدته يجبرني أن نذهب سويًا، فأحببتُ ذلك وبشدة.

بدأت أتصنع التعب الشديد وكأنني سيُغمى عليَّ حتى يلامس يدي بأنابل أصابعه، ولكنها كانت ملامسات على فترات متباعدة، ولا أعلم لماذا لم يُطِل منها، ولماذا لم يضع يده على كتفي ليمسكني أكثر، ولماذا لم يحملني بين ذراعيه؟! عفوًا، نسيت أن اليد هي المصابة وليست القدم.

اطمئن قليلًا حينما وضعتُ الثلج وأخذت قرصاً من المسكنات لكي أكمل بقية اليوم بلا ألم شديد، ثم نظر في عيني مباشرة، وقال بكل حزن بالغ:

- ليه عملتي كده؟

لم أجِبه بل اكتفيت بابتسامة خفيفة للغاية وبداخلي أرقص فرحًا لأنني قد أصبحتُ أرى شخصًا مختلفًا للغاية مهتمًا كثيرًا لأمري، فعاود السؤال مرة أخرى ولم ييأس، فقلت له بنبرة ساكنة:

- معرفش عملت كده ليه، بس حسيت إنك في محنة، فاتصرفت.

لمعت عيناه بشدة بعدما نظر إليَّ في هدوء تام، وكأنه قد أُوحى إليه أمرٌ ما، ولم ينطق بحرف واحد بل نظر إلى الطبيبة ليأخذ منها الإذن بالذهاب.

ظل يراقبني بصمت وبتعجب بقية اليوم، ويهز رأسه إليَّ كي يعرف هل أصبحت بخير أم ماذا، ولكنني دائمًا ما كنت أبتسم له وأطمئنه على حالي.

كم أنا سعيدة للغاية على الرغم من آلام يدي وظهري! وكم أنا متعبة للغاية وأريد أن أنام لأحلم بكل ما هو قادم وهو معي! وهو يلازمني في كل حركة أفعلها، وهو يضحك كعادته، وهو ينظر إليَّ بحب وشغف، وهو بجانبي حينما يعاهدني بألا يتركني أبداً.

****

أحيانًا علينا أن نلفت انتباه من نريده ومن نتمناه لقلوبنا، لعله لا يعرف بأن هناك مشاعر تحركنا تجاهه، وتأبى أن يبتعد عن عيوننا في مداها كأبراج المراقبة، وذلك لأن ابتسامتنا وسعادتنا تكمن في حضوره، ولكنه لا يعرف كل هذا العناء المصاحب لجهد مبذول بعناية حتى يفكر مثلما نفكر ونصبح داخل عقله ولو حتى بالقدر القليل المحدود، وهذا ما فعلته مع حبيبي، فلقد

أرغمته على أن يراني ويشاهدني أمامه، كي يصبح على دراية بأن هناك فتاة ما تُدعى «بسمة» تسكن وتعيش معه على ذات الكوكب ولا تتمناه إلا في أفضل حال. وحين كبرتُ تعجبت من فكري آنذاك، فكيف لي أن أعرف كل هذا وأنا بسن المراهقة المجنون؟! فأيقنت في تلك اللحظة أنني كنتُ على فطرة الحب ليس إلا، وأنه يدق أبوابه كيفما شاء وأينما أراد وبأي لحظة.

أتذكر جيدًا تلك الرسائل المكتوبة بخط يده، بل لازلت أحتفظ بها وسأظل حتى أُدفن وأموت، فكيف تُسرق أو تختفي وهي من «محمود»؟! ولأن أول رسالة دائمًا ما تكون الأفضل والأجمل على الإطلاق ولها مذاقها الخاص ورونقها الرائع أحببتها أكثر من غيرها، على الرغم من أن حديثه بداخلها كان مرتبكًا للغاية وليس لديه الكثير ليقوله، فقد كان يسألني عن أحوالي وأموري، وكيف أقضي يومي بالمنزل، وماذا عن الفراغ وأفعاله والتفكير الذي سيؤول إليه، وهل سأشاهد فيلمي المفضل على التلفاز اليوم أم لا، فأحسستُ أن رسالته أشبه بالمحادثة المحبطة التي لا تعرف لها هوية أو كينونة، ولكنه لم يقضِ عليها أو يطرحها أرضًا، بل كتب في نهاية الرسالة، "أحبك «بسمة»"، ومن أجل تلك الجملة أحببتُ الجواب وصاحبه.

الحب!

يصنع المعجزات، ويأتي من دون حسبان، ويتفاعل معك كما لو كنتُ طفلًا رضيعًا غير قادر على فعل أي شيء، بل تجلس أمامه في بلاهة تامة لتأخذ من حكاياته أفضل التفاصيل وأروع القصص، ولا تيأس معه، فإما أن تحب بقوة أو تكره بشدة، فهو لا يعرف الوسط ولا يراه إلا في العلاقات التي يضربها الملل كثيرًا، فتصبح الحياة حينها بلا معنى أو لون

أو حتى رائحة، ولكن كما تعوَّدنا، فالرائع لا يكتمل ولابد لك أن تسبح مع العابرين لا أن ترتفع بحبك وتسعد معه، فمن النادر أن يحدث ذلك، ولأنني وقتها لم أكن صاحبة قرار، فحدث ما حدث.

****

أحسستُ بوخز شديد يضرب في قلبي ومن قسوته وألمه شعرتُ بالموت، حينما قال علنًا بأننا سننتقل إلى مكان آخر عما قريب، وأنه قد وجد فرصة رائعة للعيش في مكان أجمل وأهدأ من هنا بكثير، وأما عن مدرستي فليس هناك ما يدعو للقلق، فهناك واحدة بجانب منزلنا الجديد، وسأتكيف مع الوضع سريعًا وسيصبح لدي أصدقاء جدد ومن ثم حياة أفضل.

لم أنطق بحرف واحد بل لم أكن قادرة حتى على الحراك من وهل الصدمة لمدة قد تزيد عن ربع دقيقة، فشعر بأن هناك خطبٌ ما يحدث معي وأنني لستُ على ما يرام، فاقترب مني وربّت على كتفي ونظر إليَّ بعمق، وجدني أبكي فأخذني بين ضلوعه، فاشتدت حرقتي وأبعدت يديه عني وركضتُ إلى غرفتي وأقفلتُ بابها بحكمة وظللت أبكي وحدي في ظلام دامس، فطلبت مني والدتي أن أفتح لها الباب، فلم أستجب، فبدأت في النحيب وازدادت معه وهي تطلب بكل حب أن تعرف فقط السبب الذي يجعلني أنهمر من البكاء هكذا، ففتحتُ لها الباب ثم جلست بجانبي لنتحدث، فقلت لها بعد هدوء وسكون من جانبي بأنني لا أريد أن أذهب إلى مكان آخر ولا أن أبتعد عن مدرستي وأصدقائي، فنظرت إليَّ بابتسامة هادئة فأحسستُ بأنها قد عرفت أن هناك شخص ما يعبث بوجداني، ولا أريد تركه وحرماني منه، فأرادت أن تعرفه، فابتسمتُ لها

قليلًا ومسحت دموعي بعض الشيء فأخذتني بين ذراعيها لتغدقني بعطفها وحنانها، فدخل والدي في تلك اللحظات كي يهدّئ أيضًا من روعي، ولكنه كان حزينًا بعض الشيء وذلك لأنني قد ركضتُ تجاه غرفتي وأفلتُّ ذراعيه الممسكين بي بعناية ويسر، فاعتذرتُ له ثم طلب من والدتي أن تذهب لتُحضر لنا بعض الليمون الهادئ أو القليل من عصير البرتقال، فقامت وجلس مكانها، وقال بكل هدوء واتزان:

- ها، اسمه إيه بقى؟

ابتسمتُ بهدوء وأخفيت وجهي عنه ولكنه لم ييأس وعاود السؤال بطريقة مرحة أكثر، فقلت له بكل خجل وتواضع:

- «محمود» يا بابا.

فضحك بصوت عالٍ، وقرصني من خدي بكل لطف ثم تذكر أمراً ما، وقال بكل دهشة:

- ثواني كده، هو إنتي مدياه رقمنا الأرضي؟!

فانتفضت، وقلت له بكل لهفة وشوق:

- هو اتصل يا بابا؟!

فابتسم من رد فعلي، ثم قال بتبسم:

- تقريبًا، لأن في حد بقاله فترة يتصل فيسمع صوتي فيهمس خفيف وكأنه عايز يتكلم بس يسكت ويقفل.

وعلى نفس وتيرتي، قلت له:

- يعني مقالش حاجة خالص يا بابا؟!

فهزَّ رأسه بالنفي، فجلستُ في حيرة من أمري، فاقترب مني أكثر وبدأ في توجيهي بكل هدوء واتزان حينما قال:

- «بسمة» يا بنتي، أنا مش هقولك إنك لسه صغيرة عالكلام ده أو أقلل منك أو من عقلك لأني عارفك كويس وعارف شخصيتك وفكرك العالي، وبرغم علمي بأهمية الحب في حياة كل إنسان وأنه حاجة جميلة وشيء راقي جدًا إلا إنه لازم يكون في وقته الصحيح المناسب عشان نديله المساحة الكافية وبالتالي نفكر بهدوء ونختار صح، لأن لو جه مع الشخص الغلط أو حتى الوقت الغلط هيخلينا نكره الحب وهيكون قاسي جدًا علينا ساعتها.

ثم أخذني بين ضلوعه، وأكمل قائلًا:

- إدي لنفسك الوقت الكافي يا «بسمة» ومتستعجليش أبدًا لأن الحب جاي جاي متقلقيش، إنما دلوقتي وقتك وجهدك لمستقبلك ولحياتك علشان تعيشيها بكل حرية وارتياحية، وصدقيني يمكن متفهمنيش أوي دلوقتي لكن أنا عارف إنك هتستوعبي كلامي جدًا.

ثم نظر في عيني الحزينة المتعَبة للغاية، وابتسم ابتسامته الرائعة كعادته ثم ربَّت على كتفي وقبَّلني على وجنتي وذهب في هدوء.

ربما لديه الكثير من الحق في حديثه المنطقي، ولكن هذا «محمود» يا والدي، هذا من وجدته يحمل الكثير من صفاتك بل حتى لديه سر ابتسامتك الرائعة أيضًا، هذا من أحببته لأنه يشبهك، فهو دافع وأمان مثلك. هذا لن أنساه أبدًا حتى وإن رحلتُ إلى العالم الآخر يا والدي، فهذا يُدعى حبيبي.

****

لا أعلم لماذا أتذكر عيد مولده دائمًا وكأنني لم أحب غيره، بل وكأنني أعيش على ذكراه وكأنه زوجي وليس مجرد فتى أحببته ولم يعد له أثر! ربما لم يعد يتذكرني أو حتى يفكر فيَّ مثلما أفعل، فأنا من أحببته أكثر ومن جعلته يشاهدني ويتعلق بي، ولذلك لن يسمح حتى لخياله أن يعبرني وأُصبح بداخله، فمَن جاءت وذهبت في غمضة عين هي أنا وليست هو.

كل عام وأنت بخير يا «محمود»، فبعد ثلاثة أيام ستصبح بعمر الثلاثين، متمنية لك دومًا الخير والسعادة.

أحسستُ بريحها العَطِر يقترب مني حتى لمستني من قدميِّ، وقالت ببراءتها المعهودة:

- ماما.

فالتفتُ لها ثم حملتها بين ذراعي وقذفتها إلى أعلى لتبتسم وتضحك ثم هبطت بين يديَّ لأحتضنها ومن بعدها أملّس على شعرها الحريري، لتغمرني بسعادتها وجمالها ورقتها التي لطالما ذبتُ فيهم حبًا وعشقًا.

دخل والدي علينا بكل سرور وحب، لتركض إليه تلك الشقية لتلعب معه وتمرح، فيسعدها أكثر ويحنو عليها كما يفعل معنا دومًا، وما أن انتهى حتى طلب مني أن أجلس معه، لأنه يريد أن يحدثني في أمر هام للغاية، وما أن هدأنا حتى طلب مني أن أنصت باهتمام وألا أتفاجئ وأُصدم، وإن لم يعجبني الحديث فعليَّ أن أقول له ذلك ومن ثم نغلقه للأبد، وما أن وجد غضبي قد بدأ يعتليني رويدًا رويدًا حتى وضَّح لي بأن الحديث ليس عما يدور ويجول في عقلي، فقد انتهى الحديث عن ذلك الرجل الذي ما كان إلا مجرد شيء وذهب وانتهى، فهدأت قليلًا وبدأ في المقدمة.

- طبعًا إنتي عارفة صديقي وحبيبي «عبد الرحمن الوليد»؟

فهززتُ رأسي بالإيجاب، فأكمل ما بدأه قائلًا:

- مش عارف إزاي هيقع عليكي الخبر ده لما أقوله، ولكن فعلًا مصر كلها أوضة وصالة.

فطلبت منه أن يدخل في صلب الموضوع مباشرة وألا يسترسل، فقال:

- «عبد الرحمن» ليه ابن في الثانوي، وفي مرة رمى جملة كده لأبوه وبيقوله "تعرف حد كان شغال معاك في الشركة قبل ما تقدم استقالتك وتعمل بيزنس خاص بيك اسمه «محمد عبد المجيد»؟" فرد عليه وقاله مين ده وليه، فسكت وقاله خلاص مش مشكلة، وبعد كام دقيقة خده الفضول ورجع سأل ابنه تاني، فبدأ يتكلم معاه، ومن ذِكره لاسمك قاله "أنت تقصد «عبد المجيد البدري؟". فابنه صُدم وفضل واقف مكانه وقاله "تقريبًا"، وسأله إن كان عندها أخت أصغر منها واسمها «علا»، فقاله "أه، دا يبقى أعز أصحابي وهيطلع معاش قريب" فطلب منه رقمي بدون أسباب كاملة ولا حتى فهّمه هو بيسأل عليا ليه.

كنتُ منتبهه للغاية حتى أصابني الملل قليلًا، لأنني لا أعلم ما الغرض من تلك الحكايات، فكعادته يأتي إليَّ ثم يحدثني في مواضيع كثيرة، ويذهب دون جدوى منها، فطلبت منه أن يدخل في صميم الموضوع، فابتسم وقال:

- صدقيني هيفوتك كتير لو محكتلكيش بالشكل ده، ولما أخلَّص هتبوسي إيدي علشان أحكيلك من أول وجديد.

فشد انتباهي من جديد ثم ابتسمت له، وطلبت منه أن يكمل.

- ومن شوية فعلًا ابنه كلمني، وبعد السلامات والحاجات دي قالي هو بنت حضرتك اسمها «بسمة»؟!

فتعجبتُ قليلًا ثم قلت له:

- ودا يعرف اسمي منين؟!

فطلب مني أن أهدأ كي يكمل، فقال:

- قولتله أيوة يابني، قالي طب هو ممكن أكلمها بعد إذنك؟!

- ...

- طبعًا ضحكت وقولتله أيوة ليه؟! فمعرفش يتكلم، ولقيت «عبده» خد منه التليفون واعتذر لي، فقولتله لا لا حصل خير، وبعد كده قفل وخلص الحوار.

فغضبت من حديثه الماسخ الذي لم يُفِد بشيء ووقفت كي أذهب، فضحك وأمسك ذراعي وقال:

- أقعدي بس، مهو الواد كلمني تاني من تليفونه.

فجلستُ على امتعاض، فأكمل قائلًا:

- صمم أنه يكلمك علشان عايز يقولك حاجة مهمة جدًا، بس طبعًا موفقتش وقولتله لازم يقولي أنا، فسكت وبعد شوية قالي...

صمتَ فجأة ثم نظر في عيني مباشرة وقال:

- إنتي تعرفي حد اسمه «محمود وحيد»؟!

وقفتُ على حالي من هول الصدمة واضعة يديَّ على فمي، مطالبة إياه أن يكمل ما بدأه، ولكنه كان قد انتهى بل ويريد أن يعرف، هل أعرف شخصًا يحمل هذا الاسم أم لا؟! من شدة صدمتي لم أنطق، ومن ذكاء والدي قال:

- حسيت إنك تعرفي الشخص ده، صوت الولد كان شغوف جدًا وكأنه يعرف حاجة، وصدمتك دلوقتي أكدت فعلًا إنك تعرفيه، فعشان كده يا تقوليلي مين ده أو تكلميه قدامي عشان أفهم بس.

نبرة والدي كانت قد تغيرت نسبيًا وقد أخذ موضع الجد حرفيًا، ولكي لا أجادل معه وأجعله في وضع ثقة، قلت له بهدوء ملحوظ:

- أيوه أعرفه، وأنت كمان تعرفه على فكرة يا بابا، ولو حضرتك عايز تسمع كلامي مع الولد اتفضل اتصل بيه وافتح الـ Speaker.
- أنا أعرفه؟!
- جدًا يا بابا.

لم يأخذه الفضول بأن يعرف مني التفاصيل بل أراد أن يتصل بالمصدر، وما أن بدأ جرس الهاتف يرن حتى أجاب عليه الولد برعونة ولهفة شديدة، فلم أرد إلا بعد أن ابتلعت ريقي بصعوبة وقلت له باهتزاز ملحوظ:

- أنا «بسمة»، إزيك؟!

لم ينطق مباشرة بل تنهد وأحسستُ بأنفاسه تتصاعد إلى أعلى وتهبط بشدة، ثم قال بكل أدب وهدوء:

- حضرتك بجد «بسمة»؟!
- أيوة، والله أنا «بسمة»!

- طب حضرتك تعرفي حد اسمه «محمود وحيد»؟!

عند ذكر اسمه تغمرني السعادة وتبدأ الرعشة من حيث لا أدري، ولكنني قلت له برغم كل ما يحدث في جسدي من اهتزازت واضطرابات:

- أعرفه.

فضحك بشدة بل صرخ وظل يردد:

- مش ممكن، مش معقول

فابتسمتُ بخفة وظل والدي يترقب الحدث بكل شغف ويريد أن يعرف ماذا يحدث، فقال ذلك الفتى بكل سعادة:

- يااااااه، بجد أنا مش مصدق نفسي.

فقلت له بعفوية:

- أنت تعرفه منين؟

- يبقى أستاذ التاريخ بتاعي، وفي مرة من المرات حكالنا عنك.

ألازلت تتذكرني يا «محمود»! ألازلت تتذكر حكاياتنا يا هذا!

حبست دموعي كي لا تتساقط، فوالدي لازال يجلس بالغرفة ويترقب ملامح وجهي بكل دقة، فقلت له بكل شوق:

- قال إيه عني؟!

فقال بلهجته السعيدة:

- قال إنه كان بيحبك من تانية إعدادي.

نزلت جملته كالصاعقة عليَّ، فأغمضتُ عيني على غرارها كي أذوب فيها وأجعلها تأخذ منزلة بقدر مكانتها، فتلك الكلمة دائمًا ما كانت تفعل

المعجزات معي حينما كان يقولها لي «محمود»، ولكن سرعان ما أخرجني والدي من تلك الحالة سريعًا مستفسرًا بغضب عن من يكون هذا، فهمستُ في أذنه قائلة:

- والله العظيم هفهمك على كل حاجة.

ثم أكمل ذلك الفتى السعيد حديثه حينما قال:

- أتمنى بجد إني أشوف حضرتك، ونقرب المسافات دي.

فقلت له بكل هدوء وسعادة:

- أنت عارف إن عيد ميلاده بعد تلت أيام؟

- بجد؟!

- بجد.

- طب إيه رأي حضرتك نحتفل بعيد ميلاده في المدرسة؟

فوافقت على الفور حينما نظرتُ في عيني والدي لأستجديه بألا يتحدث في شيء الآن وألا يغضب، وبالفعل أنهيت حديثي مع ذلك الولد السعيد على خير، وجاء وقتي كي أشرح لوالدي الغاضب مَن هذا.

كان يشك منذ اللحظة الأولى أنه هو، ولكنه أراد التأكد واليقين التام، وما تلك النظرات الغاضبة والانفعالات إلا غيرة ومروءة على ابنته وحب وكرامة، فأدركتُ أن والدي لازال على العهد ولم يتغير بل زاد نضجًا وجمالًا على عكس الآخرين في مثل ذلك السن، فأنا لا أرى حياتي بدونه، فهو السند والقوة والشغف الذي لطالما احتجته لمواكبة ما يحدث معي من تجارب وإخفاقات، ولكنه كان دائمًا بالمرصاد، يقف معي لأحتمي به وأرمي عليه كل همومي ومتاعبي في الحياة، فشكرًا لله على تلك النعمة.

ذهبتُ إلى غرفتي كي أتذكر بكل هدوء وسعادة ما مر منذ قليل، لأن ما حدث يشبه الخيال المرغوب فيه بشدة، فأنا لم أحلم بأكثر من هذا، على الرغم من أن فترتي معه قد مضت عليها سنون كثيرة وتجارب قاسية ومراحل حاسمة، فلقد ذُقت المرارات كلها وعبرتُ ساحات الغدر وأخذتُ من الصبر مخرجًا لأداوي تفاصيل الخداع، فهجرتُ كل ما يؤذيني ولم أندم على شيء مطلقًا، سوى أنني تزوجتُ من ذلك الشيء مراضاةً لعائلتي ولأنني أيضًا كنتُ أحبه في البدايات، إلا أنه أصبح كمثل الرجال الآخرين، وحينما تصل المرأة إلى تلك النقطة، يصبح زوجها كمن ليس له وجود أو مجرد إجراء روتيني لا يسمن ولا يغنى من جوع، فالمرأة التي تتزوج عن حب لا تراه كمثل الرجال، بل يصبح هو الوحيد من نوعه مهما كان شكله أو عرقه أو صفاته، فنحن نعشق بشدة حينما نتمنى ذلك الرجل زوجًا لنا، ولا ننظر إلى أي شيء آخر سوى أننا نريد أن نكمل حياتنا معه على ذات الوتيرة لا أكثر ولا أقل من ذلك، فالنظرية بسيطة معنا للغاية، فإن أردناكَ لنا فنحن نحبك بحق وليس كمثلك مثيل، حتى وإن كان كمثلك مثيل.

لم أكن أعرفه، بل شاهدته لأول مرة في ليلة عرس ابنة عمي، ووالده كان صديقًا مشتركًا لوالدي ولعمي، وعند حضوره أُعجب بي وبدأ يتلعني بنظراته تلك التي طالت كل جسدي، يتأمل فيه كيفما شاء، فلقد كان كالثعلب يتلصص هنا وهناك حتى يفترس نعجته على أكمل وجه، ولكنني لن أصبح هي أو هذا ما كنت أظنه، فبعد تلك الليلة بيوم واحد جاء والدي إليَّ كي يقول لي بأن صديقه معزوم على الغداء الجمعة القادمة بصحبة عائلته، وما تلك إلا بداية للتعارف والود بيني وبين ابنه الغالي الذي قد أُعجب بي أثناء العرس،

فلم أتفوه بشيء سوى أن هززت رأسي وانطلقتُ إلى النوم، فهو الذي يريحني من متاعب التفكير وتلك الحسابات التي لا تأتي على هوايَ.

جاءت الليلة المحددة والمرتقبة من جانبهم، وبدأ ذلك الثعلب يتلصص من جديد ويكمل ما بدأه بكل ترحاب وابتسامات صفراء من جانبه، فهو مبدع في صناعة الحدث وأن تكون جميع الأعين عليه، ولكن ما أثار فضولي هو أنه كان يحب المرح وليس كئيبًا أو هذا ما استنتجته وقتها، ولكنه كان ماكرًا ذا خطط وحوارات عديدة، لا يتجمل بل يكذب، فهذا ما نقول عنه أنه يعرف من أين تُؤكل الكتف، ودائمًا ما يأخذ ما يريده حتى أنا، وكم تمنيتُ وبشدة أن أكون الاستثناء من قاعدته القذرة، ولكن الويل لي، فأنا من وافقت على إتمام العرس.

كان يعرف أن الاهتمام هو بيت الفتاة فدقَّ على بابي كثيرًا من تلك الناحية، وكان يعلم جيدًا أن الحب هو بداية العلاقة الطيبة فأحبني كثيرًا، ولم ينسَ أن يسيطر على غضبه وقت الضيق والشدة ففعلها بحرفية شديدة، فتزوجته ولم أتمنَّ سواه.

كان متقناً في تمثيله، مبدعاً في تكوين الفكرة العامة حول ما تحبه الفتاة فلا يفعله بحب أو لأنه يريد ذلك، بل يفعله لكي ترسم الفتيات الصورة الرائعة حوله ويصبح عملة نادرة في أنظارهن ولكنه ليس كذلك بل كذب وخداع وتزييف، فقد كان زير نساءٍ متعدد العلاقات ولا يُسد جوعه مطلقًا مستخدمًا فمه المعسول واهتمامه المبالغ بمظهره ولمعان بريقه حتى أنهن كنَّ يحسدنَّني عليه، فهن لا يعرفن أن تلك الأشياء ما هي إلا مظاهر خداعة يحقق من خلالها رغباته ومتعته الشخصية وإيقاع أكبر عدد

من النساء في شباكه، فما كنتُ إلا صورة وزينة جميلة أمام الناس وخصوصًا أهله الذين كان يضغطون عليه مرارًا وتكرارًا من أجل الزواج والاستقرار، فكرهتهم وكرهته وتمنيت موته، ولم أهدأ إلا حينما طلبتُ منه الطلاق، فضحك ولم يبالِ وحينما نعتُّه بأنه لا يحمل صفات الرجل وما هو إلا مجرد شيء، ضربني ضربًا شديدًا، فأخذتُ طفلتي وذهبتُ إلى بيت والدي، ومن هنا وقف بجانبي أمام ذلك الخائن بل كان طوق النجاة بالنسبة لي، ولكن والدتي كان لها رأي آخر، فقد طالبتني بالاستمرار وأن أتسلح بالصبر وقوة الإرادة، وأن أحرص على بقائه معي، ومع الوقت سيتغير بكل تأكيد وسينصاع إلى ما أريده، ولكنها لا تعرف من هو ذلك الكائن الذي يمكث معي وكيف هي طباعه، فهو خائن، كاذب، جاحد، ثعلب، ناكر للجميل، ويستحيل العيش معه تحت سقف واحد، وهو مبدع أيضًا في تأليف القصص والروايات حينما يقع في المصيدة، فكم من المرات أسمعه بصوت هادئ يتحدث مع فتاة ما بكل رقة وبكلام معسول، بل سمعته في مرة من المرات يقول لها "سأقابلك بعد نصف ساعة من الآن"، لقد خانني يا والدتي العزيزة وتقولين لي "عليكِ الاستمرار!"، لا، لن يحدث ذلك مطلقًا.

تبًا للمجتمع وإلى نظراتهم للسيدة المطلَّقة، فهم لا يعرفون ما عانته وما رأته من أيام سوداء، وما تحملته حتى لا تقع تحت ذلك المُسمَّى ولكن لا مفر، فاستحالة العيش مع الرجل لا تأتي من فراغ بل تأتي بعد سنوات من المعاناة والضيق والعسر والشدة والقسوة، فلا تحكموا إلا بعد أن تسمعوا الأسباب الكاملة، بل لا تحكموا من الأساس.

تنازل عني بمنتهى السهولة ولكن حسب شروطه الموضوعة بعناية، وهذا ما أكد لي أنني قد أخطأت حينما تزوجت هذا الكائن، فهو أراد أن أتنازل عن كل شيء في سبيل نيل الحرية، فوافقتُ بعد تفكير شديد، فلقد كنتُ بين نارين، لا أريد أن أكون سيدة لذلك الثعلب ولا أن أُكتب باسمه، وبين عدم التنازل عن حقوقي وأشيائي، ففضلتُ الحل الأول وتنازلت له عن كل شيء عدا ابنتي فلذة كبدي، تلك التي سأدعمها وسأربيها على المبادئ والكرامة، وعلى ألا تختار من يحبها إلا بعدما تتريث وتحكم بعقلها لا بقلبها وأن تتحكم في مشاعرها حتى لا تصبح مثلي بل أفضل بكثير مني إن شاء الله.

لقد تنازل عنكِ بكل سهولة يا ابنتي الجميلة مثلما فعلها معي، فهو لم يحبك من الأساس بل أراد ولدًا كي يحمل اسمه ويتباهى به، وكأن الفتاة عورة لا يحق لنا أن نفرح بها ولا بوجودها في حياتنا!.

يا إلهي على مِثل هذا التفكير والجهل!

لن أقول لكِ أن والدك المهووس بإنجاب ولد يرفع من اسمه ويعلّي من شأنه، أراد مني أن أقوم بعملية إجهاض فور معرفته بأنكِ فتاة يا عزيزتي! لقد تزوجتُ مريضًا شاذًا بلا رحمة يا عزيزتي وأخطأت الاختيار، فسامحيني على ذلك وعلى حرمانك من كلمة "بابا".

ثم جئتَ أنت يا «محمود» لتذكرني بكل هذا، وتعيد عليَّ ذكريات الماضي الأليم، فوالله إن في القلب غصة لا تهدأ إلا حينما أتذكرك وأتذكر سن المراهقة المجنون وهو ممتلئ بالمرح والسعادة والسرور مبتعدة كل البعد عن ضغوطات الحياة ومتاعبها، فقد كانت أعقد مشكلة تواجهني هي

الاستيقاظ مبكرًا كي أذهب إلى المدرسة، حتى قابلتك يا «محمود»، فتغيرت تلك القاعدة وأصبح المرض هو من يضربني ويحول بيني وبينك فقط، فأصبحتُ أتغذى جيدًا وأشرب الحليب في كل ليلة حتى لا أمرض وأُحرم من رؤياك، فوالله لو خلت عيناي من رؤياك فما خلا القلب أبداً.
لا أعلم إن كنت على رباط مع فتاة أخرى أم لا، ولا أعرف ماذا سيكون الوضع عندما تعرف بأنني قد تزوجتُ وأنجبتُ فتاة جميلة للغاية، ثم انكسرتُ وأخفقتُ في حياتي وأصبحتُ سيدة مطلَّقة، فهل سترضى بها أم لا يا عزيزي؟!
هل لازلت تُكنّ لي مشاعر الحب يا «محمود» أم أنني قد أصبحتُ صفحة عابرة قد مضت عليها سنون كثيرة حتى طالها التراب ودُفنت؟!
لا أريدك أن ترى فتاتي الآن حتى أمهد لك الطريق وأخرج ما في جعبتك لي، فربما فرحة ذلك الفتى السعيد تجعلني على أمل بأنك لازلت متعلقاً بي ولو قليلًا يا «محمود»، ولأنك ستصمت ولن تتكلم إذا رأيتها بين ضلوعي، فحتمًا سيصيبك العجز واليأس ولن تتفوه بشيء.
أحترق نارًا وشوقًا لرؤيتك كثيرًا.
كثيرًا يا «محمود».

****

تناسيتُ ضربات الماضي الموجِع جيدًا، ومسحتُ دموع الفرح رويدًا رويدًا، وزينتُ نفسي بكل عناية حتى تراني كما عهدتني يا «محمود»، حتى تراني كالفراشة كما كنت تحب أن تناديني، فربما قد نسيتُ بأنك كنت تقول

لي بأنني كالفراشة الجميلة، تداعب العابرين بألوانها وبريقها اللامع، فقلت لك حينها: وأنت غذائي وشغفي بالحياة يا «محمود».

اتصل بي الفتي السعيد كي يتأكد بأنني قد استيقظتُ مبكرًا، فمثّلت عليه بأنني كدت أنسى اللقاء وشكرته على تذكيري، ولكنه لا يعرف بأنني لم أَنم إلا القليل من فرط السعادة، وبعد أن نظرتُ إلى المرآة لمدة قد تزيد عن خمس عشرة دقيقة وأنا ألاحظ تلك الهالات السوداء التي تقبع أسفل عيني المتعَبة للغاية، وأداوي جراحي التي لطالما حاولت جاهدة أن أنساها واضعة يدي على قلبي الذي يخفق بقوة، ذهبتُ إلى اللقاء المرتقب بكل توتر واضطراب.

سلمتُ على ذلك الفتى بكل سعادة، فله ابتسامة رائعة وأسنان ناصعة البياض، كمثل بشرة صديقته الجميلة، وما أن تحدثنا قليلًا حتى ذهبنا إلى الفصل الذي سنبدأ فيه تحضير المفاجأة، تلك التي لن يتوقعها إطلاقًا، بل سيصمتُ للحظات حتى يستوعب ما يحدث أمامه، وهبط ذلك الفتى السعيد أرض الهدوء والصمت لجلبه، بينما كنا في الدور الثاني نتمايل ونبتسم ونتوقع كيف ستكون رد فعله.

- برغم أنه حكى عنك بس معرفش يوصف جمالك دا.

فتاة بمنتهى الرقي والرقة تغازلني وتعلن بداية المودة والحب لأرى براءة الأطفال تداعبها، فركضتُ إليها لأحتضنها لكلامها المعسول ولأنني كنتُ أريد أيضًا أن أهدأ من ذلك التوتر اللعين قبل أن يأتي ويقف أمامي، ثم قبّلتها على وجنتيها، وانتابني الفضول كي أستفسر عمّا قال أيضًا عني، فقالت فتاة أخرى بكل لطف وبصوت جميل:

- حكى إزاي بدأت قصتكم وإزاي بدون مقدمات اختفت.

ثم جاء صوتٌ من شاب نحيف الجسم أراد أن يسأل بكل عفوية:

- هو إنتي ليه سبتيه؟

فتذكرتُ حديث والدي الذي دار بيني وبينه، وكأن ذلك الحوار قد حدث بالأمس وليس من سنوات بعيدة، حينما جمعني به ليعلن عن انتقالنا إلى مكان آخر، ولأعطي لنفسي المساحة الكافية كي أحتضن حياتي ومستقبلي ثم بعد ذلك سيأتي الحب لا محالة، فابتلعتُ ريقي ثم قلت له برعشة قد اجتاحتني من حيث لا أعلم:

- ساعات الظروف هي اللي بتقول كلمتها مش إحنا.

فردَّ بمنتهى القوة دون أن يفكر للحظة واحدة:

- إحنا اللي بنتحكم فالظروف مش العكس.

فنظرتُ إليه بكل حسرة ثم هززت رأسي بالإيجاب، وقلت له:

- عندك حق.

ستعلم حينما تكبر قليلًا أن الظروف تتغير بالفعل، وحينما يحدث ذلك سنقف جميعًا عاجزين كل العجز حينما نرى كل ما كنا نطمح إليه ينسلت من تحت أيدينا ونحن لسنا بقادرين على فعل أي شيء. ستعلم بأننا حينما نريد شيئًا ما بمنتهى القوة قد ينفلتُ من تحت أيدينا بنفس ذات القوة وربما أكثر وأنت لست بقادر حتى على الحراك، فقط تبكي وتتحسر وتصمت وترتعد ثم تحاول أن تنسى أمام الجميع وبداخلك لا تنسى أبداً. ستعلم أن الواقع قد يتضارب مع أحلامنا التي لطالما أردناها بكل قوة،

فتنكسر وتقع ومن هنا تبدأ التحديات، فإما أن تظل زاحفًا أو تقف على قدميك من جديد لتهزم كل ما طرحك أرضًا. ستعلم بأن القدر قد يمنحنا فرصة أخرى لنحقق فيها ما أردناه ولكن على طريقته ونهجه، فما عليك سوى الدعاء والشغف للوصول إلى حلمك.

طلبت منه الفتاة ناصعة البياض أن يصمت وألا يتحدث في تلك الأمور، فما علينا الآن سوى الاحتفال وأن ننتظر حضور «محمود» إلى هنا، ومن ثم نفرح سويًا.

أحسستُ بروحه ترفرف في المكان لتعلن الحرية بعد أن كانت مجرد خيال، فما كان عليَّ حينها سوى أن أترقب لحظات قدومه على أحرّ من الجمر ناظرة إلى عينيه بكل شغف، فصببتُ عرقًا من هول كثرة أفكاري المليئة بأشياء من الصعب حدوثها، واعتلتني علامات التوتر والقلق من جديد بل ازدادت واتسعت، فجاءت بجانبي وأمسكت بيدي بإحكام شديد تلك الرقيقة بوجهها الطفولي وكأنها تعلم جيدًا ماذا يحدث معي، وكأنها قد مرت بتلك التجربة من قبل، وما أن وقف أمامي وتلاشت ابتسامته رويدًا رويدًا محاولًا أن يعرف مَن تلك التي تنظر إليه بشدة حتى تمنيتُ أن أحتضنه بكل قوة تاركة كل ما يحدث في الكون خلفي، فأنا أحتاج الحنان والاهتمام منه كما كان يفعل من قبل، وأحتاجه أن يكون كما عهدته أيضًا من قبل، ليس متغيرًا ولا متحولًا إلى شخص آخر مجهول الهوية، فهو نقطة الأمل وبداية حياة جديدة بالنسبة لي.

ظل يحاول جاهدًا أن يكتشف تلك السعادة التي تحوم حوله من قبل طلابه، مترقبًا نظراتي وشغفي إليه حتى وصل إلى حد الجنون ثم قال بصوت غير واضح منهك متعب:

- «بسمة»؟!

فغرغرت عيناي بالدمع، وما كان عليَّ سوى أن أنظر إلى أسفل كي لا أنهار أمامه، وما أن رفعتُ رأسي من جديد حتى هززتُها بالإيجاب، فقال وهو بارقٌ على آخره:

- مش ممكن! إنتي بجد؟!

فابتسمتُ له ولم أعرف حينها أين صوتي، فربما قد ذهب من هول رؤيته وفرط جماله، فطلته الأولى تغنيك عن الدنيا وما فيها فسقطتُ في هواه ولم أقدر حتى على الحراك، حتى قال بكل تعجب:

- إزاي دا حصل!، إنتي «بسمة»؟!

فعاد صوتي مؤقتًا لأقول له بحشرجة لا أعلم من أين جاءت:

- أيوة، أنا «بسمة» يا «محمود».

فتقدم خمس خطوات كي يسلّم عليَّ وهو على حالته لا يصدق ما يراه، فسلمتُ عليه، ثم قال الفتى السعيد بعد لحظات من الصمت:

- أعتقد عمرك ما هتنسى المفاجأة دي أبدًا يا مستر.

فابتسم لي ثم التفت إليه وقال بسعادة بالغة:

- أبدًا يا «حامد».

فضحك «حامد» ثم رفع صوته بالغناء والاحتفال بعيد ميلاده، فرددنا معه ونظرتُ إلى ذلك الثلاثيني بكل إعجاب وشغف ليعلم أنني لازلتُ على العهد وأتمناه بشدة.

****

لا زالت جميلة بتفاصيلها الصغيرة ووجهها الحسن البسيط، فهي كالنبتة الصالحة التي تُروى بعناية ليأتي من يأتي فيُكمل بناءها ويحافظ عليها كي تزدهر وتنضج.

لا زالت كالفراشة المتحررة التي تحلق أمام العابرين بكل جمال ويسر وتأبى السقوط أو الانكسار، فهي خُلقت من أجل الحرية، جاعلة حياتنا مزدهرة ولها ألوان من الهدوء والخفة والانبهار، فتلك ليست في الثلاثين من عمرها بل في مقتبل العشرينات، تتزين وتتحلى كي تُسعد الناظرين، ولكن ما جعلني أهبط إلى أرض الواقع وأبعد عن خيالي المتعلق بها هو أن وجهها شاحب حزين على الرغم من جمالها الشاهق ورونقها الفعَّال، فإذ ربما هناك سرٌ لتلك الحالة وأريد أن أعرفه بقوة.

لم أرَ إصبع البنصر يحتوي على شيء في كلتا يديها، فشعرت بدليل غير قوي على عدم وجود حبيب في حياتها، فليس بالضرورة أن ترتديه في لقاء كمثل هذا، بل من الممكن أن يكون في حقيبتها يتلصص علينا ومن ثم ينقل الأخبار إلى من اشتراه وقدمه إلى يدها الجميلة تعبيرًا عن المودة والحب، وربما ليس لديها حبيب وقد جاءت لتتأكد هل تزوجت أو تغيرت وأصبحت شخصًا مختلفًا عما كنت عليه أم لازلتُ على العهد، ولكن في كل الأحوال أعلم جيدًا أن عدم ارتداء الخاتم في تلك المناسبات دليل واضح على عدم الحب بالدرجة الكافية التي تجعله في قلبها أينما كانت وأينما ذهبت.

تمشينا وذهبنا إلى أقرب مقهى وظللتُ أنظر إلى عينيها الجميلتين وإلى تلك اللمعة التي تغدقهما، ثم ابتسمت لها وقلت بكل خجل وسعادة بالغة:

- أنا لسه مش مصدق ومش مستوعب إن «بسمة» تانية إعدادي معايا دلوقتي، وبنتكلم بعد كل السنين دي!

قالت وخداها أقربان إلى لون الفراولة والبسمة تداعب وجهها:

- ولا أنا مصدقة أصلًا من يوم ما «حامد» كلمني.

الوطن دائمًا ما يؤكد على الألفة والود بشكل مبالغ للغاية، فدائمًا ما يعلمك أن الحياة بسيطة بشكل ملفت، وحتمًا ستتعجب من لعبة القدر والصدف الرائعة التي تمتزج بعناصر الدهشة والمفاجأة التي قد تصل بك إلى عدم الحراك من وهل الصدمة، فكيف أحكي لـ«حامد» قصتي، بل ويدون اسم حبيبتي ووالدها حتى يحين موعد عرضهما بكل صدفة على والده الذي يعرف ذلك الرجل بالفعل بل يكون صديقه المقرب وتبدأ الحكاية من هنا ويصبح عيد ميلادي أقرب إلى الخيال وغير المألوف واللا متوقع على الإطلاق، فمَن كانت تأتي في أحلامي وتعبث بخيالي في أوقات كثيرة تصبح أمامي لأتأمل بها وأغازلها كما أريد.

- لسه ابتسامتك جميلة زي ما إنتي يا «بسمة».

لم تنطق بل أخفت عينيها عني وظلت تبتسم وتداعب شعرها الناعم، ثم قالت بكل خجل ولطف:

- ده عشان عينيك بس اللي جميلة يا «محمود».

- اسم «محمود» طالع منك حكاية، وكأني لأول مرة بسمعه من سنين.

ولِما لا، فلا أتذكر أن والدتي تناديني باسمي بل دائمًا ما تسبني، وأصدقائي بالعمل ينادوني بـ«حودة» أما عن مديري «أفندي» فيكفي أن رائحة فمه مليئة بالسجائر الكريهة التي ربما من فرط سعادتي سأدخن القليل منها اليوم!

- إحكيلي عنك يا «بسمة»، بجد متشوق أعرف السنين اللي فاتت عدت عليكي إزاي.

لا أعلم لماذا وقع سؤالي عليها كموقع الصدمة، فابتسامتها تلاشت شيئًا فشيئًا وتوترت وظلت تهز قدميها كثيرًا، فتعجبتُ قليلًا من كل هذا، ولكنها سرعان ما أخفت كل هذا، وحمدت الله على ما مضى ولم تنطق بأكثر من ذلك.

- سبتيني ليه يا «بسمة» ومشيتي؟

لم أتماسك أكثر من ذلك، فذلك السؤال كاد يبتلعني وينهش في عقلي المتعَب من فرط إلقائه، فأطلقتُ العنان له منتظرًا صدمتها وشعورها بالضيق، فقالت بحزن مصاحب إلى التماسك الملفت:

- أنا مسبتكش يا «محمود»، إحنا مشينا من المنطقة مش أكتر ومكنتش أعرف خالص والله إن دا هيحصل، وحاولت أوصلك بس مكنش في أي وسيلة للتواصل إطلاقًا، حتى أنت مفكرتش تتصل ولا تكلمني مع إن رقمي كان معاك.
- اتصلت على فكرة بس كان دايمًا في حد من عندكم هو اللي بيرد، مكنش إنتي فبقفل، ولما مجتيش بعد الإجازة اتجننت وكلمتك بس أنكروا وجودك، أو يمكن ادتيني رقم غلط.
- لا، كان صح يا «محمود»، بس اتغير للأسف لما مشينا وانقطعت كل حاجة ممكن توصلني بيك.
- كان ممكن على فكرة تيجي المدرسة زيارة حتى وتعرَّفيني روحتي فين ونتكلم من تاني.

- فكرت فيها على فكرة، بس معرفتش أعملها لأن أمي كانت بتوديني وتجبني من المدرسة، ولما عرضت عليهم فكرة إني أرجع تاني المدرسة أشوف صحابي بس مش أكتر رفضوا وانتهى الموضوع عند الحد ده.
- اللي عايز حاجة بيعملها يا «بسمة»، وإنتي سكتي ورضيتي بالأمر الواقع.
- لا يا «محمود» صدقني، اللي عايز حاجة مبقاش بيقدر يعملها ومبتكونش على مزاجه، الظروف والوقت والنصيب هما اللي بيحكموا العلاقات وبنفضل نتعلم كل ما بنكبر وهنفضل نتعلم لحد ما نموت.

هدأنا قليلًا من تلك المحادثة الساخنة المتمردة على علاقتنا ببعضنا البعض، وكأنها كان من المفترض أن تخرج لتعبر عن تلك الأشياء الموجعة التي ظلت بداخلنا، وتريد أن تخرج كي تصفح عن قلوبنا جراء ما حدث معنا، ثم تناجي أن نبدأ صفحة بيضاء خالية من شوائب الماضي القاسي ومتاعبه، وما أن ابتعدت أعيننا عن بعضنا البعض حتى ابتسمنا بهدوء ثم ضحكنا من تلك المناقشة وذلك الجدال الجاد، فقالت بكل سعادة:

- بس أنت قدامي من تاني يا «محمود» بنفس طباعك وشخصيتك.
- وإنتي كمان يا «بسمة»، نفس جمالك وضحكتك الحلوة.

ولأنني لا أحب الصمت وتباعياته، قررت أن أعبر الكثير من الأحاديث الهادئة المملة التي لا تبوء بشيء، فقلت لها بكل توازن:

- مرتبطة يا «بسمة»؟

نظرت إليَّ في خوف وقلق فاجتاحها التوتر من جديد، وقطع كل ذلك اتصالٌ من والدها للاطمئنان عليها، فعرفتُ من حديثها أنه يعلم بأنني أجلس معها، فطلبتُ منها أن تسلّم عليه، وبالفعل فعلت ذلك بكل حب ولطف ورُقي، ثم نظرت في عيني مباشرة بعدما أنهت حديثها معه، وغيَّرت الموضوع لتقول لي بأن والدها يعرف أين نحن الآن، بل ويرسل سلاماته ويعرف جيدًا مَن أنا، وبعد أن أنهت تلك الديباجة المملة، تسمّرتُ أمام عينيها من جديد ولم أنطق فعرفت إلى ما أشير، فقالت وهي تحاول أن تبتسم:

- لأ، مش مرتبطة.

فتعجبتُ أن فتاة جميلة مثلها لم تتزوج حتى الآن، فقلت لها بفضول واندهاش تام:

- غريبة إن بنت جميلة زيك كده متجوزتش لحد دلوقتي!

فقالت والغضب قد بدأ يأخذ جانباً من حديثها:

- أنت كلمتني عن إذا كنت مرتبطة ولا لأ، ورديت على سؤالك مش أكتر.

- طب ليه إنفعلتي كده؟!، أنا مجرد بسألك.

لملمت أشياءها بسرعة وقررت الانسحاب ومن ثم الاستئذان بالرحيل، فأمسكتها من ذراعيها وطالبتها بالهدوء بل وتأسفت لها عما بدر مني تجاهها فأحزنها وأغضبها هكذا، فقررت العدول عما كانت تريده وجلست من جديد بل واعتذرت هي الأخرى عن تلك الضيقة وتلك الحالة الغامضة التي حدثت، حتى قالت وهي تنظر إلى أسفلها:

- كنت متجوزة وإطلقت.

يا إلهي! لِما القدر يأخذني إلى سابع سماء من كثرة السعادة والسرور ثم يهبط بي بسرعة البرق هكذا لأجد نفسي تعيسًا حزينًا!، ولِما أحلم بالجنة طالما أن أفعالي ستأخذني إلى الجحيم منذ البداية!، ولِما لا يأتي الشيء كاملًا أو على الأقل مفرحًا!، فما عشته طيلة حياتي يؤكد على مصيري السيء وحظي العاسر، فلا شيء يكتمل مثلما أريد.

- أنا آسف لو كنت فكرتك بحاجة، أنا بس بسألك عادي.
- عادي محصلش حاجة.

كانت على ذات الوتيرة وتلك الحالة المضطربة التي لا زالت تخضع لها في تلك اللحظة، فأردتُ أن أخفف عنها، فقلت لها بطريقة غير مباشرة:

- ساعات بنختار غلط ومبنكنش عارفين، وساعات الوقت بيسرقنا ومبنكش قادرين بس بنكمل عشان الأولاد أو المجتمع أو الناس أو أو.. ومش بنفوق غير لما بنتوجع الوجعة الكبيرة اللي من خلالها مبيكنش في أي حاجة فارقة معانا بعدها، أي حاجة حرفيًا غير نفسنا وبس اللي عمرنا ما فكرنا فيها وكنا بنكمل علشان المركب تمشي وعشان الحياة تمشي وحاجات كتير فوق بعض بتصبرنا بس مش أكتر.

هدأت بعض الشيء وأخذت رشفة من عصير البرتقال ثم سألتني وهي تنظر إلى عيني مباشرة:

- وأنت مرتبط؟
- كنت.
- إيه اللي حصل؟

- حبت حد تاني عشان كان مستقر أكتر مني وجاهز وبس.

ثم اعتذرت إن كانت قد ذكرتني بشيء قاسٍ ولكنني أكدت على أنني بخير وإنها لا تستحق حتى أن تأخذ جزءاً من تفكيري وأن الموضوع قد دُفن ومات منذ فترة وجيزة، فعدلت من وضعها واستندت بيدها على المنضدة التي أمامها لتسألني عن تطلعاتي واتجاهاتي نحو المستقبل، فتعجبتُ من سؤالها هذا ولم أجِب عليه لأنه ليس لدي إجابة سوى أنني أراها الآن وهذا كل ما يهمني في الوقت الحالي، فابتسمت وخجلت كعادتها فعادت سعيدة جميلة كما كانت، وما أن تحدثنا كثيرًا عن الماضي ومواقفه وتلك الأشياء التي لازلنا نتذكرها جيدًا رغم مرور السنوات وكِبر العمر حتى استأذنت كي تذهب في سلام لأن ابنتها الصغيرة تبكي وتريدها بشدة، على أن يجمعنا لقاء آخر في القريب العاجل، ورحلت في هدوء تام تاركة ذلك اليوم يمضي في غموض ويتركز على خليط من السعادة والحزن الفرح والبكاء، لتجعلني في حيرة من أمري فيُرهق تفكيري ويطالبني بالنوم حتى أهدأ ولا أفكر، فركضتُ إلى بيتي حتى أستريح ولا أفكر في شيء قط، إلا أن والدتي أرادت أن تجيز عليَّ وتطرحني أرضًا حينما طالبتني أن أجلس معها لثوانٍ معدودة فقط بعد أن رفضتُ طلبها مرارًا وتكرارًا، ولكنني في النهاية رضخت لِما تريد، فقالت بكل سعادة:

- فاكر «مي» اللي رحنا ليها زيارة من فترة كبيرة كده وقولتلي إنها كانت عجباك بس عشان هي مرتبطة بشخص تاني فمش هينفع نتقدم وكده وقفلنا على الموضوع؟

- أه فاكرها، مالها؟!
- بقت فاضية، ولسه مفركشين الخطوبة من كام يوم بالظبط وكل شيء بقى قسمة ونصيب، فإيه رأيك نتقدم الخميس اللي جاي؟

لا أعلم لِما تذكرت الحليب حينما يغلي ويشرع بالتساقط أمام عينيك فتركض إليه بكل بقوة أملًا في ملاحقته قبل السقوط ولكنه يهبط ولا يبالِ منكراً انتظارك وصبرك ليعلن عن الانسحاب، فتتحسر وتنظر إلى أسفل في ضيق وحزن، ثم تبدأ بتحضير تلك الأشياء من جديد بعد أن كنت على وشك أن تحتسي مذاق القهوة الخاص بك ولكن في المرة الثانية ينخفض الشغف عن المرة الأولى، تلك التي لازلت تنظف بقاياها بسبب سهوك ونسيانك، ولكن آثارها باقية لا تذهب دفعة واحدة، بل تجعلك تتألم في صمت منتظرًا الكوب الثاني كي تتناوله فقط لا أن تستمتع به.

لم أجِب عليها وذهبتُ إلى غرفتي كرجل عجوز على فراش الموت لا ينتظر شيئًا من أحد بل اكتفى من الدنيا وما فيها، ليُغمى عليه ولا يدري بحاله إلا في الصباح عندما حاولت أمه إيقاظه ولكنه كان في حالة يُرثى لها ولا يريد أن يفتح عينيه من جديد، بل كل ما كان يريده في الوقت الحالي هو النوم إلى الأبد.

لا أعلم ماذا يريد هذا الزمان مني، فلقد تجرعت ما يكفي من مرارة وعسر حتى ضقت ذرعًا ولم أعد أتحمل المزيد وكل ما أريده الآن هو الراحة النفسية والهدوء.

لا أريد أن أختار أو أن أجتهد في شيء، حتى أنال ما أستحقه سواء كان خيرًا لي أم شراً، ولا أريد أن أذهب إلى المدرسة لأعلّم أولادي مادة لم يعد

لها شغف أو حياة، فالحكايات القديمة لا تُحكى كما ينبغي أن تكون، ولا الأحداث الجارية تساعد على التدبر أو الاستعداد المعقول، فكل شيء يعيد نفسه، ولا حياة لمن تنادي، فالغباء يتفشى ويراوغ الجميع.

العزلة!

نعم أريدها وبشدة، فهي تشبعك بالهدوء في مصاحبة الاكتئاب المهضوم من أجل نيل الاضطراب اللازم حتى لا تختلط بمن يجعلك تكره الدنيا وما عليها، فأنا لم أعد أتحمل البشر بأفكارهم ومعتقداتهم، حتى اضطرابي لم أعد أطيقه ولا أعلم كيف أفكر وأعيد بناء صبري من جديد، فما أفكر فيه الآن هو كيف فعلتها وأقنعته بالبقاء على الرغم من أنني كنت أريد مثله إنهاء حياتي كما كان يفكر، حتى هو كان شغوفاً أكثر مني بفعلتها، فكيف راوغته حينما كنتُ بجواره على «كوبري عباس» وأقنعته بالبقاء؟!

هل لأنني أخاف الله وأعلم أن مهما انجرف بي عقلي فلن أفعلها مطلقًا، أم لأنني رأيتُ شخصاً يحتاج إلى المساعدة فذهبتُ إليه لأمد له يد العون كما تعودت دومًا على ذلك الأمر، أم الاثنين معًا؟!

عدم ذهابي إلى المدرسة لمدة يومين على التوالي وعدم الرد على هاتفي، جاء بصديقي «حسن» إلى المنزل، فوجدني أجلس على سريري غير راغب بأي شيء في الحياة، فجلس بجانبي كي يطمئن ويتحدث إليَّ بكل هدوء.

- طب تليفونك واتقفل ومفيش مشاكل، وإنك متروحش شغلك ولا دروسك لمدة يومين تعدي ماشي، وإنك متعرَّفنيش أي حاجة يا اللي بتقول عليه صديقي وأخويا الوحيد هحاول أبلعها، لكن والدتك ذنبها إيه تشوفك كده؟!

لقد حلفتُ بالله أنني لن أتحدث إلى البشر من جديد ولكنه يعلم جيدًا كيف يعبر داخلي ليخرج ما لدي.

- مالك يا «محمود»؟، مفيش حاجة مستدعية لكل دا صدقني، فيه إيه؟!

لا أريد الحديث يا صديقي ولا أريدك أن تعبث معي، فيكفي ما يدور بداخلي من ضيق وعراك لا مثيل لهما، فدعني وشأني وارحل بسلام.

- يا ابني انطق مالك؟!، صدقني والله مهما كان السبب فمفيش حاجة مستدعية لكل دا، يعني مثلًا علاقتي بـ«سميرة» بتسوء كل مدى ومش قادر أفهمها أو تفهمني وعادي خالص.

- عشان أنت لخمة معاها ومبتعرفش تتعامل.

سأصوم ثلاثة أيام، أو ربما لن أعتبره كائناً بشرياً يفكر ويتكلم.

- فوقت دلوقتي يعني واتكلمت!، طالما في تهزيق وشتيمة لازم تتكلم ويطلعلك صوت!.

ابتسمت، نعم فعلتها بعد ليلتين من التعب والإرهاق وقلة الأكل، فأكمل حديثه قائلًا:

- إحكيلي بقى مالك؟، متتعبنيش معاك.

من أين سأبدأ يا صديقي؟، وكيف ستعلم ما يدور داخل عقلي؟، وكيف ستؤول حكايتي معك؟، وهل لديك من الحلول ما يكفيني ويهدّأ من روعي؟!

ابن «وحيد» لا يعرف إلا النحس يا صديقي، ولا يشم رائحة الفرح إلا نادرًا، ولا تكتمل له مناسبة سعيدة تجعله يفرح كما ينبغي أن يسعد ويمرح، ففي البداية وجد شغفه بالتدريس والتعليم حينما وجد

«المنصوري» بعد أن علمه أبوه وحبَّبه في تلك المهنة للغاية ولكنه لم يعلم ذلك، وبعد أن أصبح مدرسًا كبيرًا يحبه طلابه، كره القوانين وطريقة التدريس فقتله الروتين وأحكم قبضته جيدًا حتى كاد يموت من فرط الاختناق، وعندما وجد ضالته وأحب بكل طاقته، تركته غير مأسوف عليه، وأمضت حياتها مع شخص آخر جاهز لإتمام الخطبة ومن ثم الزواج وتحقيق أحلامها، وتذكر في يوم ما أمام طلابه تلك الفتاة التي أحبها يومًا ما أثناء المراهقة، فحكى قصته بشغف وبحب مما أبكى المعظم منهم، وأراد طالبه المفضل أن يثور ويبدأ في عملية البحث عن بعض الخيوط التي تجمع الماضي بجدران الحاضر ليعلن عن مستقبل جديد له واقع غير مسبوق، فتعود تلك الفتاة من جديد في صدمة لا تعرف من خلالها كيف تعبّر عن فرحك وسعادتك، تعود لتحتفل معك بعيد ميلادك، ولأن لا شيء يكتمل إلى آخره كالعادة، تأتي وهي مطلَّقة ولها فتاة صغيرة، فيبتسم من وهل الصدمة ولا يعرف كيف يفكر في الموضوع، وتأتي من بعيد للغاية أيضاً فتاة لها ابتسامة ساحرة وعيناها بهما نهر الحياة، لا تظمأ من رؤيتهما أبداً، لتعلن عن مرحلة جديدة تريد أن تعبر من خلالها، ولكنك تأبى وبشدة لأن الحب الأول حينما يكون حبًا صادقًا لا يمضي سريعًا بل يحتاج إلى شهور وربما إلى أعوام لنسيانه، وهي أحبته بالفعل ولكن الظروف لم تشَأ أن يجمعهما بيت واحد.

صمت ولم يتحدث لمدة قد تزيد عن ثلاثين ثانية في محاولة منه أن يلملم أوراقه ويرتب حديثه كما يفعل دومًا، فإذا كان لا يعرف كيف يتعامل مع الجنس اللطيف، فهو متمرس وبشدة في إلقاء النصائح على أكمل وجه،

ولن أجاملك إذا قلت لك يا صديقي بأنني كنتُ أنتظر رأيك وحديثك بفارغ الصبر، وما أن شُحن عقله واستعد لسانه حتى قال بكل اتزان:

- يمكن الروتين قاتلك فعلًا في مهنة كل فكرتها بتدور حولينه أصلًا، بس أنا بشوف سعادتك وفرحك لما بتدرس وتوجه كل جيل طالع للصح، ويمكن شغفك وحبك للتدريس كان بسبب والدك بس فهم إن «المنصوري» هو الفكرة والدافع ليك، فأنت عندك فرص كتيرة جداً إنك تعوضه عن دا بالدعاء وقراءة القرآن على روحه، الله يرحمه، أما بالنسبة لـ«دنيا» فهي مكنتش تستحقك يا «محمود» وأنت عارف كده كويس، وسبحان الله خدت اللي على شاكلتها والله يسهلّهم ويبعدهم عننا.

ثم هدأ ونظر إلى عيني جيدًا وأكمل قائلًا:

- أما قصتك الغريبة دي فهي محتاجة وقت وتفكير كتير لأنها بين نارين، وعلى فكرة اللي يعرف يدلك على الطريق الصح هي والدتك، وتبدأ تشوف معاها أنهي الأنسب بالنسبالك، اللي شافت دنيا واتجوزت وبقى معاها بنت، ولا اللي حبت واحد والظروف مخدمتش حكايتهم وبقت متاحة.

يعجبني منطقه وحديثه البسيط، فأنا صعب الاقتناع ولكن ليس مع صديقي «حسن».

- بس دا ميمنعش يا «محمود» إن فترة غيابك وقعدتك لوحدك وإنك مش بتاكل عشان كده غباء ومش مستاهلة بصراحة.

- على فكرة أنا ممكن أقولك أمي طابخة إيه النهاردة، وهتلاقي تحت رجلك جنب السرير علبتين كشري بنزل أشتريهم لما بتدخل تنام، يا «حسن» الزعل حاجة والأكل حاجة تانية برضو.

ضحك للغاية ثم اقترب مني واحتضنني بقوة، فأدركتُ أن وقتي بالكهف الخاص بي قد انتهى وعليَّ أن أملأ طاقتي جيدًا تلك المرة لأنني أمام اختيارات عديدة وقرارات ليس من السهل مطلقاً أخذها.

الخلل!

هو المعنى الحرفي لِما يحدث معي الآن، فأنا متقلب المزاج، أهوج، يفكر كثيرًا ويهدأ سريعًا، ويكره بشدة، ويحب بعنف، ويتألم بقوة، ويراوغ المشكلات بصعوبة، ويصارع عقله في مرات عديدة، ولا ينسى مطلقًا أنه منحوس.

وجدتها سعيدة للغاية حينما وجدتني أعدل من حالتي النفسية شيئًا فشيئًا وما أن ذهب «حسن» بسلام حينما قطعت له وعدًا بأن ألقاه بالمدرسة في الغد حتى جاءت إليَّ لتوبخني وتطالبني بأن أصالحها، ففعلتها عن جدارة واحتضنتها بكل قوة وأغمضتُ عيني كي أرتاح وأهدأ وأنا كالطفل الصغير بين ذراعيها، وما أن جلست بجواري حتى قصصت لها ما يحدث معي وما أفكر فيه.

لم تغضب بل كانت حكيمة على غير المتوقع، فهي لم تتحدث بشكل سيئ عن «بسمة» لأنها مطلقة وهذا ما كنتُ أخشاه، ولكنها قالت بكل حزم وثقة:

- يا ابني أنا أتمنالك كل خير، بس أتمنى إنك تعرف «مي» أكتر، وإن كنت خايف إنها تكون متعلقة بخطيبها الأولاني، فأنا عارفاك كويس وإنك قادر جدًا تخليها تنساه بطريقتك وتعاملك معاها.

ثم رمت تلك الجملة لتؤكد على رغبتها واتجاهها المباشر:

- «مي» مدخلتش دنيا زيك يا «محمود»، ربنا يعملك اللي فيه خير يا ابني.

لن أفرض عليك رأيي، ولكنني سأعرّفك ما هو الاتجاه الذي سيجعلني سعيدة، وهذا هو المبدأ الذي اتبعته والدتي معي، ولكنني أؤيد رأيها أيضًا، فعلى الرغم من أن قلبي يوجهني إلى سن المراهقة المجنون حيث «بسمة» صاحبة الجمال الموزون وخفة الدم المهضوم وجسدها المشدود بعناية، إلا أن «مي» لديها مميزات كثيرة عن «بسمة»، فجاذبيتها أعلى وأقوى وصغر سنها يميزها بشدة، فهي أصغر مني بخمسة أعوام، غير أنها لم تُقطف ولم تُمس بعد، ولذلك قررتُ أن أرسل رسالة إلى «بسمة»، تفيد بأنني أريد مقابلتها من جديد لنتحدث ونتكلم، ولأقول لها بأنني مقبل على خطبة إحداهن، وأريد بعض النصائح بما أن لديها تجربة سابقة، ولأرى ما هو رد فعلها.

****

- ها قابلتيه؟
- قابلته.

تتميز أختي الصغيرة بالفضول المبالغ فيه، ولا تهدأ إلا حينما تحقق مرادها وتعرف كل ما يدور حولها وحول أحبائها فيرتاح عقلها وتنام في الحال، وما أن جاءت من عملها حتى قدمت إليَّ كي تعرف كل ما حدث منذ بداية اليوم إلى الآن.

- إحكيلي بقى كل حاجة من ساعة المفاجأة وعيد الميلاد لحد ما سابك وسلمتوا على بعض.
- بعدين يا «علا» بعدين؟!، أنا تعبانة جدًا دلوقتي.
- طب صورتيه؟
- أصوره إزاي يعني يا بنتي!

ثم ركضتُ إلى غرفتي سريعًا وأغلقتُ بابي جيدًا، كي أتلاشى حديثها المزعج وتركيزها الشديد، فأنا متعبة للغاية وأريد أن أنام.

- بس إنتي وعدتيني إنك هتصوريه.

قلتُ لها بصوت خافت حتى لا تستيقظ ابنتي الجميلة على صوتي:

- المرة اللي جاية يا «علا».

فقالت بكل تعجب وفضول بالغ:

- هو لسه في مرة تانية؟!

فلم أرد عليها وابتسمت لجملتها، وظلت تتحدث وتتوسل كي أفتح لها الباب، ولكنني لم أفعل، وما أن ضربها الملل حتى ذهبت على أمل أن نتكلم فيما بعد.

احتضنتُ ابنتي بخفة وبكل لين حتى لا تستيقظ، وما أن دققت النظر فيها حتى وجدتُ القليل من ملامح والدها الذي لطالما كرهته واحتقرته ولم يعد في حياتي سوى بعض الذكريات الأليمة التي تأتي بين الحين والآخر ولا تنتهي أو ترحل أبداً، ولذلك تساقط من عيني الدمع فاحتضنتها بكل ألم وضعف طالبة منها أن تسامحني يومًا ما على ما فعلته في حياتها وعلى حرماني لها من كلمة "بابا"، ويا ليت العمر يعود من جديد حتى لا أوافق على زواجي منه، متخذة كل الحذر ممن يشابهه، غير مغصوبة على أحد ولي كامل حريتي في أن أختار الأفضل بالنسبة لي.

ما يقلقني من القادم هي تلك اللمعة التي طالته حينما رآني بعد تلك السنين العجاف واختفت حينما علم بأنني امرأة مطلقة، بل حتى لم يهتم بأن يعرف تلك التفاصيل عن ذلك الأمر، وكأنه لا يهمه حالي أو ما حدث في الماضي، وهذا ما يُعرف باللامبالاة وعدم الاهتمام، فشكراً لك يا «محمود» على تلك اللافتة الجميلة. ولكن ماذا إن كان هذا يمثل الاضطراب وعدم التفكير الجدي في الأمر، فمن الممكن أن تكون صدمة اللقاء قد أثَّرت عليه فأراد أن يبدو طبيعيًا وهادئًا بعض الشيء، وربما أيضًا أراد أن يعزز من قدره وأن يكون حكيمًا إلى أقصى درجة، داهيةٌ ذلك الرجل.

لقد جننت. نعم، لقد جننت. أطلب من شخص قد مضى على لقائنا ببعضنا البعض أكثر من خمس عشرة سنة أن يحبني، بل ويطلب مني الزواج في أول حديث يجمعنا حتى وأنا سيدة مطلقة!

ربما حديثه عني لطلابه بل وتذكره لأحداث قصتنا هو ما دفعني إلى أن أفكر بتلك الطريقة، أو ربما لأنني قد أصبحتُ متعبة للغاية، هزيلة، غير قادرة على شيء، فوجدت ذلك الرجل الذي أعرفه جيدًا أمامي، فأردتُ أن أرمي بنفسي عليه ليصبح طوق النجاة بالنسبة لي، فلقد تعبتُ كثيرًا ولم يعد لي طاقة لأحد.

****

- متصلش بيكي يا «بسمة» لسه؟!

بكل غضب قلت لها:

- قولتلك لأ، لأ.

نظرت إليَّ في حزن ولم تتكلم، ثم ذهبت إلى غرفتها بكل هدوء.

بعد أن تمالكت أعصابي وهدأت، ذهبتُ إليها كي أعتذر منها، لأن انفعالي غير مبرَّر بشيء.

- أنا آسفة يا «علا»، حقك عليه.

ابتسمت ثم أخذتني في حضنها وقالت:

- ولا يهمك، أنا مقدرة اللي إنتي فيه.

- محدش مقدر ولا حاسس باللي أنا فيه، أنا حاسة إني عالة عليكوا.

- إيه اللي إنتي بتقوليه دا، اوعي تقولي كده تاني أبدًا.

تلك هي الحقيقة يا عزيزتي، أنا بماضٍ موجوع به جراح عديدة، وبحاضر معزول عن الجميع ولا ينم عن مستقبل مشرق. أنا العاتمة في بيت عتيق مهجور لا يسكنه أحد ولا حتى يقترب منه. أنا تركيبة الدواء المميتة التي

تقتل ببطء لا أن تأخذها وترتاح فورًا. أنا لا شيء بعد أن حاولت جاهدة أن أكون كل شيء.

حاولت تهدأتي جيدًا بعد أن بكيت كثيرًا ثم قالت بكل لطف وسماح:

- مين قالك إن «محمود» ممكن يكون هو الخير ليكي؟، ومين قالك إنك عالة علينا؟!، ولو كان سؤالي عليه محسسك بكده، فأنا عمري ما هسأل تاني إنه اتصل أو اتقابلتوا أو لأ، إنتي و«جميلة» ماليين علينا حياتنا وإنتي اللي بتجمعينا بعد ما كان البيت مالوش روح وكل واحد في عالم لوحده، دي النظرة في وشك الصبح بالدنيا وما فيها، وعلى قد ما نفسي تعيشي مع راجل يعرف قيمتك ويعوضك عن كل شر شوفتيه في حياتك، على قد ما نفسي تفضلي معانا هنا علطول ومتسبيناش أبدًا، والله عمرك ما هتعرفي إنتي إيه عندنا ولا بنحبك إزاي، إحنا دم واحد يا «بسمة»، اوعي تنسي ده.

بكيتُ بشدة ونسيت حالي وأنا بين ذراعيها طالبة منها أن تحتضنني بكل قوة، وظللنا نبكي سويًا حتى هدأنا معًا، ومسحت دموعي بيديها الجميلتين الناعمتين بكل ود وحب، فجعلتني أبتسم داعية لها أن يتحقق لها مرادها بكل خير وسعادة.

- مش هتقوليلي بقى اتصل ولا لأ؟

ضحكتُ بشدة وقبَّلتها على خديها واحتضنتها من جديد، وقلتُ لها:

- إيه رأيك بقى إنه لو اتصل هطلب منه إنه يجيب واحد صاحبه ونقعد كلنا سوا، عشان بصراحة مش هقدر أقابله لوحدنا تاني.

تفاجئت ووقفت على حالها وظلت تقفز وتتدلل في سعادة ويسر ثم قبَّلتني من جديد وشكرتني على ذلك.

جبر الخواطر!

هو كل ما يجبر فيه الإنسان نفوسًا قد كُسرت وقلوبًا قد فُطرت وأرواحًا قد زُهقت، فيحقق لك العلامة الكاملة للهدوء والسكينة، تستريح نفسك ويطمئن قلبك، ويُبدَّل لك وضعك من العسر إلى اليسر والسعادة الحقيقية، فما هو إلا سبب من الله أراد من خلاله أن تسعد وتفرح.

ولأن الأشياء الجميلة تأتي تباعًا كما أن المصائب لا تأتي فرادى، وجدتُ هاتفي يرن، وإذ بـ«محمود» هو المتصل، فوقفتُ في صدمة من أمري، ثم ركضتُ بسرعة إلى أختي حتى وقفتُ أمامها ولم أنطق، فأصابها الذهول وطالبتني بتفسير ما يحدث ولكنني لم أبالِ، ثم نظرتُ في عينيها مباشرة عندما أجبتُ عليه.

كان صوتي متحشرجًا بعض الشيء، ولكن لا يهم، فكل ما أريده الآن هو أن أراه وألا تنتهي تلك المكالمة سريعًا.

- قولت لازم أكلمك وأسأل عليكي.

- ربنا يكرمك، أنا بخير الحمد لله.

فلتسرع يا هذا وتعبر تلك السلامات وعبارات الترحاب وتدخل في المفيد أيها الأحمق.

- إيه رأيك نتقابل قريب إن شاء الله؟

سأصرخ من شدة فرحي، ولكن ذلك الأبله لا يعلم أن تلك الأشياء لابد لها أن تكون بتاريخ معلوم لا أن تصبح مبهمة هكذا.

- هحاول إن شاء الله، بس هيبقى على إمتى كده عشان أعمل حسابي؟ والله لو أردتَ أن نذهب الآن لوافقتُ على الفور.
- إيه رأيك بكره الأربع مثلا؟!
- "أربع أربع أنا موافقة"
- والله مش عارفة ظروفي، إيه رأيك يوم الخميس؟!
- عندي درس للأسف، بس استني، ممكن آقدمه وأشوفك على خمسة كده.

أمسكتُ يدي «علا» بشدة لأنني قد بدأتُ أشعر بالدوران، وقبل أن أوافق أمليتُ عليه شرطي الوحيد.

- تمام موافقة، بس حاول تجيب معاك واحد صاحبك لأن أختي هتكون معايا.

صمت قليلًا، ثم قال بلجلجة:

- أه.. تمام، خلاص أشوفك إن شاء الله الخميس.

وما أن أغلق الهاتف حتى وجدتُ نفسي أتراقص وأقفز إلى الأعلى وأحتضن أختي الجميلة بكل قوة وأتمايل عليها وأتدلل، فجاءت والدتي على صوتي السعيد هذا واستفسرت عن لحظتي الجنونية مع «علا»، فهذا لا يحدث كل يوم، فقالت «علا» بكل خفة دم:

- مصر جابت جول.

فقالت أمي بكل تلقائية:

- في مين؟

فقالت تلك الفاكهة الجميلة لتكمل ما بدأته:

- مش عارفة.

فضحكنا بشدة واقتربنا من والدتنا العزيزة كي نجعلها ترقص وتبتسم معنا، وما أن تعبنا وجلسنا لنستريح قليلًا حتى قالت أمي بكل تعجب:

- مصر مين والتلفزيون أصلًا مش شغال؟!

****

- ها كلمتها؟

- أه لسه مخلص معاها، بس بتقولي هات واحد صاحبك معاك.

وقبل أن يصبح كحلوى المشبك ويتحايل عليَّ كي يذهب معي، وافقت على الفور حتى لا أموت من فرط التلاصق، ثم قلت له:

- مقولتليش آخر تطوراتك مع «سميرة»؟

- لا جديد، ملل بشع، شكلنا هنبقى أصدقاء بس يا صديقي.

لن تكتمل تلك العلاقة مطلقًا، فهي لا تحبه بل تريده كصديق وأخ فاضل، ولازالا تحت طائلة تلك العبارة الشهيرة: "فلنجرب كل ما بوسعنا، لعلنا نكون زوجين حميمين أو نبقى على نفس المنوال كأصدقاء أعزاء ولن نخسر شيئًا"، ولكنهما لا يعلمان أن التجربة هي مجرد نصف الطريق ولن تؤول إلى أي شيء، لأنهما قد تركا مُعداتهم وسر بقائهم على قيد الحياة وتمسكا بكلمة التجربة، والحب لا يعرف تلك الكلمة لأنه صريح وواضح و...

وماذا عنك يا «محمود»؟!

أنا لا أعرف بعد كيف ستؤول علاقتي مع «بسمة»، وكيف سينتهي بنا المطاف؟! بل يوم الخميس هذا كان من المفترض أن نذهب فيه إلى بيت «مي» ولكنني رفضتُ ذلك وقررتُ أن أحادثها عبر رسائل «الماسنچر»، ولكنني أيضًا لم أحادثها بعد.

وسط حيرتي وحديثي مع نفسي، جاء إليَّ المدير ليتحدث فيما يراه وما يريده.

- بقالك فترة مش عاجبني، مالك؟

فابتسمت له، ثم طمأنته على حالي وأنني بخير وبصحة الحمد لله، ولكنه أصر أن يعرف ما يدور في رأسي، حينما قال:

- معتقدش حد يغيب يومين ورا بعض من غير ما يقول ويبقى كويس وبخير زي ما أنت بتقول!

ابتسمت له في خفة ثم نظرتُ إلى أسفلي لأبعد ملامحي وعينيَّ عنه، ثم قلت له بكل ذبذبة وخوف:

- مفيش، كنت حابس نفسي في أوضتي شوية ومش عايز أكلم حد أو أقابل حد لغاية ما أفوق وأهدا شوية.
- وفوقت؟
- يعني الحمد لله.

ثم تقدم عدة خطوات إلى الأمام وطلب مني أن أذهب معه إلى مكتبه كي نكمل ما بدأناه سويًا، وما أن جلس على كرسيه المعهود وأشعل سيجارته حتى طلب مني أن أستريح وألا أقف، وقال بكل ثقة:

- عارف؟ وأنا صغير كنت بحب أتشعبط على العربيات وأنا راجع من المدرسة، وفي مرة أبويا شافني، ولما خلصت وروحت البيت لقيته مستنيني، وحبسني في الأوضة وقفل عليا ونزل فيا ضرب بالحزام، ومعرفتش أنام يوميها من كتر الألم اللي كان في جسمي ومن كتر ما هو كان زعلان مني ومش عايز يصالحني، تخيل بصالحه بعد كل الضرب والألم اللي كنت حاسس بيه ساعتها!، أصله كان معلمني إني مهما كنت صح أو غلط لازم أنا اللي أروح أصالحه وأعتذرله.

ثم ابتسم بسخرية من تفكيره حينها، وأكمل ما بدأه وقال:

- لما كبرت بدأت أفكر في عزلة تامة عن مواقفي معاه، دخلت أوضتي وحبست نفسي وفضلت أفكر، هو لو كان خايف عليا فعلًا مش كان جري عليا ومنعني من أني أكمل شعبطة على العربيات؟!، طب هو لو كان بيخاف عليا فعلًا وعاقبني عشان معملش الحركة دي تاني ويحصلي حاجة، طب ليه العنف والقسوة في العقاب بالشدة دي؟!، طب لما ضربني بالقلم قدام ولاد عمي ومن ساعتها شخصيتي بقت ضعيفة قدامهم، طب لما حرمني من لعب الكورة عشان أدخل كلية الهندسة زي ما هو عايز رغم حبي لكلية الإعلام زي ما أنت عارف، وفي الآخر لا طلت دا ولا دا.

دائمًا ما أكون منتبهًا بشدة حينما يتحدث وينفث دخانًا كثيفًا هكذا من سيجارته المشتعلة في ترقب واستماع.

- دمر حياتي مش كده؟!

قالها بسخرية كعادته، قالها وبداخله غضب شديد لا يخرج إلا عن طريق قبضتة المضمومة بقوة، واهتزاز كلتا قدميه بكثرة، وإنهاء سيجارته بسرعة، ومن ثم إشعال الأخرى، ولكنني لم أصمت كالطالب المتلقي في درس باهت، وباغته بأسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات عديدة حينما قلت له:

- وأنت كنت فين من كل ده؟! ومحاولتش تتكلم معاه ليه وتعرض كل أفكارك وتحاول تفرض شخصيتك وتختار هدفك وتمشي وراه رغم أي حاجة تحصلك.
- أسئلة سخيفة، متوقعتش أنك ممكن تسألها خالص.

صدمني بجملته فأبعدتُ نظري عنه بابتسامة هادئة حتى تحدث من جديد:

- وتفتكر محاولتش!، وتفتكر مجادلتش ومتعبتش في توجيهه وتغييره!، حاولت أكيد بس مفيش أمل ولا رجا من الكلام، «زوبع» الأكبر اللي أسس المدرسة دي كان كده وعلم أولاده كده وأولاده علموا أولادهم كده ومحدش عرف يخرج عن العرف دا، لأن أهم حاجة صورتنا ومركزنا قدام الناس وملهاش لازمة رغباتك ولا الحاجات اللي بتحبها.

نظرتُ إليه في تعجب وانبهار، حتى قلت له:

- عشان كده بتهتم بنشاطات المدرسة وبتوجه طلابك للحاجة اللي بيحبوها، وكأنك بتعوض نفسك معاهم عن كل حاجة اتحرمت منها، وكأنك لقيت فيهم شغفك وحبك وهدفك بالحياة.

ابتسم بخفة ثم نظر في عيني مباشرة، وقال:

- مش شرط تحقق سعادتك بأنك تفرَّح نفسك وبس، ومش مبرر تمشي في نفس الطريق اللي مالوش مؤشرات نجاح واضحة عشان شوفته من الأول فاضي وأمان، ما يمكن الطريق التاني اللي فيه ناس يساعدوك في إنك توصل لحلمك أسرع وأفضل، وصدقني إنك تحقق شغفك في حد وتفرحه هتحس بإحساس عمرك ما وصلتله ولا حسيته قبل كده.

لم يسعني في نهاية حديثي معه سوى أن أقف وأسلّم عليه بشغف وحب، وقبل أن أذهب، قال لي:

- مسألتنيش يعني ليه اتكلمت معاك بالذات في حاجات خاصة كده بالنسبالي؟!

وقفتُ كالطفل الأبله الذي ينتظر والدته بأن تُدخل الملعقة في فمه لتغذيه وتمنحه الطعام اللازم لمساعدته على النمو وبناء قوته، فقال بابتسامة واضحة:

- عشان حاسك زيي، عندك حاجة عايز توصلها وشغوف بتعليمك الصحيح لطلابك والبعد عن الروتين، محتاج بس تمشي في الطريق التاني غير المألوف ومتخفش من حاجة.

لم أفهم جيدًا إلى ما يشير بالطريق غير المألوف، ولكن أعجبني وبشدة وصفه وإشادته بي، فقلت له بسعادة واضحة:

- شكرًا جدًا أستاذ «شاكر».

تعجب من مناداتي لاسمه لأول مرة من فترة كبيرة للغاية، ولكنه لن يتعجب من ذلك مرة أخرى.

لقد عومل بقسوة منذ الصغر، ولكنه لم يتأثر بذلك، فأخذ ما أخذ من معاناة وألم وكبت وعنف وحوَّله إلى طاقة إيجابية يسعد به طلابه وأحباءه، وتلك هي أقصى درجات التسامح النفسي والتشبث بصلاحيات الإنسان السوي، فهو لم يتغير بتغير الأوضاع والظروف فأصبح لديه هدف سامٍ ونبيل يريد أن يحققه مهما كلفه الأمر، ولذلك لا أعتبره مجرد مديري في العمل وحسب، بل معلماً فاضلاً له آراء مختلفة وعقلية متفتحة للغاية.

ذهبتُ إلى حصتي وإلى شغفي الذي لطالما ابتعدتُ عنه وحاولت أن أبغضه ولا أحترمه، فيأتي حزينًا ليربت على كتفي ويعتذر مني ثم يداعبني لأذهب معه في رحلة غامضة لأشرح منهجاً مليئاً بالحواشي والمصطلحات المعقدة التي يصعب على طلابي تداركها وفهمها، فيلجأون إلى الحفظ لا الفهم وتبدأ حالة من التخبط تجتاحهم، فيرتعبون ويرتعدون من الامتحان لأننا

علمناهم أن يوم الامتحان يُكرَم المرء أو يُهان، ودائماً هناك نسبة من الإهانة قد تأتي وتعبر، إذا هذا ليس بتعليم أو تهذيب وإصلاح، بل مجرد نظام إجباري يطبَّق كما هو ولا عزاء للحاقدين!

وجدتُ طالبي النجيب «حامد» أمامي، فقد هبط إليَّ على أن نصعد سويًا إلى الفصل، فابتسمتُ له وشكرته كالعادة على تلك اللافتة الجميلة والهدية التي أهداني إياها يوم عيد ميلادي الثلاثين، ولكنه دائمًا ما يثني عليَّ ويراوغ فيما فعله من جمال وحب، بل ويريد مني ألا أشكره على ذلك مبررًا أن هذا الحدث مجرد شيء ضئيل مقارنة بما أفعله معه، فاحتضنته على ذلك، فقال بكل سعادة:

- لما شوفتكم مع بعض حسيت إنكم مش أول مرة تشوفوا بعض من سنين لأ لأ، حسيت إنكم لسه متقابلين قبليها بيومين مثلًا وكأن في كميا غريبة بينكم.

ابتسمت له، حينما تخيلت وجهها أمامي يضحك ويغمرني بنغزتها الجميلة، ثم فركت شعره كمداعبة من جانبي، وقلت له:

- زي الكميا اللي بينك وبين «زينة» مثلًا؟.

تلعثم بالكلام ونفى كل ما أشير إليه واحمر خجلًا وارتبك كثيرًا، وحدث كل هذا عندما سمع اسمها فقط، فأوقفته وربت على كتفيه بكلتا اليدين ونظرت في عينيه جيدًا، وقلت له بكل هدوء واتزان:

- لو بتحبها فعلًا زي ما أنا شايف كده من نظرة عينيك، يبقى لازم تحقق حلمك وتكون طبيب جراح زي ما أنت عايز، واوعى تلعن الظروف وتنسحب من أي هدف مهما كان، وإياك تستسلم تحت أي ظرف،

لأن الندم قاتل والبعد إصابة مباشرة في القلب، فاوعى تبعد عن حب أو حلم أو دافع أو شغف، وإثبت ومتتأثرش عشان مغريات الطريق كتير ومبتخلصش، فكن أنت لأن جواك جميل وتستاهل كل خير.

ابتلع ريقه بعنف، ثم احتضنني بقوة، وشكرني على ذلك بكل هدوء، وانطلقنا بعدها إلى الفصل.

كان الجميع في حالة ترقب وخوف إلا من رحم ربي، والسبب كالعادة هو الامتحان، وعلى حسب معتقداتنا وما نقلناه من أجدادنا، أن يوم الامتحان يُكرم المرء أو يُهان، لا أن يُكرم مرتين كما قالها دكتوري الفاضل بالجامعة رحمة الله عليه، وبرر في ذلك بأن في الأولى يحقق مراده ويكلل مجهوده وشقاءه بالنجاح الباهر، وفي الثانية يجاهد من جديد ولا يستسلم أبداً وهذا ما يصنع منه رجلًا ذا مسئولية وتحمل، لا يخشى المحن ولا يهاب أحدًا سوى الخالق وعليه فليتوكل.

جملته لا تزال في ذهني إلى يومنا هذا، أتذكرها ولا أنساها مطلقًا، لأن مردودها كان رائعًا بالنسبة لي وتعلمت منها الكثير، والآن جاء دوري أن أنقل تلك الصورة إلى طلابي لعل ذلك ينفعهم فيما بعد، فالعلم أصبح عبارة عن شهادة نزيّن بها الجدران ولا نعلم كيف نبحث عن إمكانياتنا ونغوص في بحر أحلامنا لنحقق ما نريده وما نبتغيه، مبتعدين كل البعد عما يريده الأهل أو الصورة العامة ووضعنا أمام الجميع، فكلٌ منا له هدف وعزيمة وشغف تجاه شيء ما، ولكننا نقف مكتوفي الأيدي لنظام روتيني بشع لم يتغير منذ مئات السنين، يعتمد على التلقين والحفظ والدرجات النهائية، وأن ورقة الامتحان تقيس وتحدد مدى نجاحك

وتميزك عن الآخرين، ولا يعلمون حتى تلك اللحظة أنها مستهلَكة للغاية ولا تعبر عن مدى براعتك وقدرتك بالحياة، ومن هذا الجانب يبدأ البعض بالعصيان والتمرد، فالعقل لا يستوعب كل هذا الكم من المنهج وتراكماته، فيصاب بعدوى اليأس وقلة الحيلة، ويطبق جملة «ألبرت أينشتاين» المعروفة: "كل إنسان عبقري، ولكننا إذا حكمنا على عبقرية سمكة عن طريق قدرتها على تسلق شجرة، فستظل السمكة طيلة حياتها معتقدة أنها غبية". والعبقرية هي أجمل ما نتوج به الجهد البشري المبذول في شيء تحبه وتريده بشدة، فابحث عنه ولا تتوقف مهما طال بك الزمان، وتذكر أن القطار لم يفُت بعد، وبإرادتك تقدر على كل شيء، والحلم لا يموت طالما أنك على قيد الحياة تتنفس وتعيش.

- كان نفسي تكون بتديني كل المواد مش تاريخ بس.

جملته كانت صافية نابعة من الداخل، فقلت له بابتسامة بالغة:

- ومين قال يا «حامد» إني هسيبك في باقي المواد!، أينعم هتكون معايا سنة واحدة بس وتكتب رغباتك بعد كده علمي علوم، بس أكيد هطمن عليك وهكون معاك، إحنا مش صحاب ولا إيه؟

- أكيد يا مستر، أكيد صحاب.

فاحتضنته وفركت له شعره الجميل الطويل، ثم ذهبوا جميعًا بعدما أنهوا الامتحان في سلام، وظللت أفكر وحيدًا فيما سأفعله في الأيام القادمة بهدوء تام.

****

- أنت فين يا «محمود»؟، أنا وصلت.

- خلاص قدامي خمس دقايق بالظبط وأكون عندك.

كانت تقف بدلال وجمال أمام النادي المطل على نهر النيل حسب الميعاد المتفق عليه من جانبنا ومعها أختها الجميلة تلك التي تتزين وتتجمل في سعادة بالغة، فأغدقتهما بكلمات عطرة وغزل بسيط لا يساوي جمالهما، فمهما حاولت أن أتأملهما وأقول فيهما شِعرًا رسبتُ وركضتُ إلى بيتي عاجزًا شاردًا، فالصمتُ في حرم الجمال جمال.

- بس إنتي مقولتليش يا «بسمة» إن أختك جميلة أوي كده.

فخجلت بشدة وابتسمت بدلال وجمال، ثم قالت:

- ربنا يخليك، بجد أنت متعرفش أنا مبسوطة جدًا إني شوفتك.

فوخزتها بذراعها حتى تهدأ ولا تتكلم مرة أخرى، ولكنها أكملت حديثها قائلة:

- متعرفش إن من ساعة ما عرفت قصتكم وأنا مبهورة أد إيه، وبجد مش متخيلة إن بعد السنين دي كلها تتجمعوا تاني.

فقلت لها ناظرًا إلى من وخزتها بكتفها حتى لا تعقّد المسائل وتتحدث عن شيء تريد أن تخفيه ولا تخرجه علنًا:

- أنا كمان مكنتش متخيل إني أشوف ابتسامة «بسمة» من تاني.

فصمتنا جميعًا نحن الأربعة، وقد حان ما اتفقت عليه مع «حسن» بأن يستأذن ويذهب للبحث عن ماء أو طعام حينما تحين تلك اللحظة وأن

يأخذ معه «علا»، ولكن لا حياة لمن تنادي، فقالت وهي تنظر بجدية إلى صديقي الأبله الذي لم ينطق بشيء منذ البداية وكأنها تسبّه بداخلها:

- طب أنا هقوم أتمشى شوية.

فضربته في قدمه، فتألم وعاتبني على ذلك، فجززتُ على أسناني ولكنه لم يتحرك ولم يعرض عليها بأن يذهب معها، فقلتُ لها قبل أن تذهب:

- طب متتأخريش، وروح معاها يا «حسن» عشان لو القمر دا حد عاكسه يعني.

فضحكت والتفتت إلى الأمام ولم تنتظر ذلك الغبي، حتى وقف بسرعة وذهب إليها بعدة خطوات سريعة حتى يلاحقها.

سأضربك بشدة بعد أن يرحلا أيها الأحمق.

نظرنا إلى بعضنا البعض بابتسامات عريضة، والهواء يتطاير من حولنا، والأشجار تبعث لنا الأمان والطمأنينة، والهدوء العابر يخيم على الأجواء حتى قلتُ لها لأفتتح بوابة الحديث:

- جميلة أختك ورقيقة جدًا، شبه حد أعرفه كده.

فابتسمت بخجل وأكلت شفتيها، ثم قالت:

- مين؟

فنظرتُ إلى أعلى وكأنني أفكر في سؤالها، فضحكت، ثم قلت لها بكل هدوء:

- إنتي يا «بسمة».

داعبت شعرها المتطاير ونظرت إلى أسفلها بكل رقة وخجل، ثم قالت:

- عايزة أوريك حاجة معرفش إذا كانت هتسعدك ولا لأ.

فأمسكت حقيبتها وقامت بفتحها في ترقب وفضول من جانبي، ثم قبل أن تُخرج ذلك الشيء السري المُبهَم، نظرت في عيني بحب وسعادة وقامت بإخراجها، وقالت:

- فاكر الجوانتي دا؟!

فأخذته منها، وانطفأت ابتسامتي لثوانٍ قليلة حينما قلبته يمينًا ويسارًا، لأتذكر ذلك اليوم الذي أهديتها إياه كي يدفئها ويمنحها القليل من الطمأنينة والسكينة، فنظرتُ إليها في تعجب شديد وقلت لها:

- بجد؟! هو ده فعلًا؟!

فهزت رأسها بالإيجاب بابتسامتها المعهودة، فنظرتُ إلي القفاز مرة أخرى لأداعبه وأتفحصه، ثم نظرتُ إلى عينيها من جديد وقد عجز لساني عن وصف تلك الحالة التي أصبحتُ بها، وقبل أن أنطق وأبدأ في التهتهة واللجلجة من هول الموقف، أخرجت شيئًا آخر من حقيبتها ومررته إليَّ لأجد في يدي جواب حب قديم للغاية. نعم، هو كذلك، فهذا الذي كتبته بخط يدي، وقلت فيه الآتي:

"إزيك يا بسمة عاملة إيه؟، كنت مبصوط جداً إني شوفتك امبارح وأكيد هشوفك بكره وبعده وهفضل أشوفك علطول عشان بحب ابتسامتك وضحكتك جداً، بس عايز أعرف هتعملي إيه في يومك انهارده، وهتفكري في إيه، ويا ترى هتشوفي الفيلم اللي بتحبيه ولا لأ، اكتبيلي كل ده في الجواب زي ما اتفقنا عشان أخده منك بكره، بحبك يا بسمة"

لم أجد ما أقوله وما أشعر به، فوجدتني مادة للسخرية والمزاح، حينما قلتُ لها:

- كنت كاتب كلمة "مبسوط" بالصاد!، وإيه الخط الوحش ده؟!

فابتسمت وقالت:

- لا متقولش كده، دا خطك أحلى من خطي أصلًا.

فنظرتُ في عينيها الواسعتين بكل حب لأتأمل ما بداخلهما من سعادة وسرور، وظللنا هكذا دون كلام أو حديث، حتى قلت لها:

- كنا صغيرين حتى على إننا نجيب لبعض هدايا وتفضل ذكرى لينا بعد كده.
- فعلًا عندك حق، بس الصدف خلت معايا الجوانتي دا عشان يكون منك، والرسايل بتاعتي اللي كنت بكتبهالك أكيد محتفظ بيها، صح؟
- تقريبًا.

ردٌ قاسٍ جعلها في حيرة من أمرها، ولكنني أريد أن أخرج ما في جعبتها، وقبل أن تختنق من ردي الأول ناولتها الثاني حينما قلتُ لها:

- أو يمكن مكناش متخيلين إننا ممكن نسيب بعض في يوم من الأيام قبل ما تمشي وتروحي مكا...

قاطعتني بكل حزن عندما قالت:

- أنت لسه مضايق وزعلان من موضوع إني سبتك ومشيت على الرغم من إني قولتلك الظروف ساعتها كانت إزاي وشرحتلك الموقف؟!

فصمتُ ونظرتُ إلى أسفلي قبل أن أطلق العنان، وأقول لها:

- كانت سنة صعبة جدًا عليا يا «بسمة»، إنتي سبتيني في الترم الأول وبابا الله يرحمه سابني في الترم التاني، افتكرتك كتير وافتكرته أكتر، بس موته كان حاسم وكنت عارف أنه خلاص راح مني، بس إنتي كان في شعور بيراودني إني هشوفك تاني، إمتى معرفش، عارفة...

تنهدتُ، فتأثرت وأوشكت على البكاء، فأكملتُ لها قائلًا:

- أنا زعلان إني مكنتش الأول في حياتك.

لم تصمت وناولتني ما بداخلها دفعة واحدة حينما قالت:

- ومين قالك إنك مكنتش الأول في حياتي!، هو أنت فاكر اللي اتجوزته دا راجل أصلًا؟!، دا يوم ما عرف إن اللي في بطني بنت كان بيفكر يخليني أسقطها، كان متجوزني زينة عشان يلعب بديله براحته ومحدش يكلمه لحد ما وصلت للخيانة يا «محمود»، خاني وبعد كده طلقني بكل سهولة عشان مبعرفش أبسطه ولا بديله حقوقه وكأني حيوانة لرغباته ولأوامره، وجاي تقولي بكل بساطة أنا مش الأول في حياتك!.

بكت، نعم بكت، ودموعها قد بدأت تتساقط واحدة تلو الأخرى، حتى أكملت حديثها على ذات المنوال، بعدما أخرجت منديلًا لتقول:

- يمكن فعلًا مش الأول في حياتي كجواز بس أنت الأول كحب، أنت الحاجة النقية وسط العك والقرف اللي شوفته في حياتي معاه، ولأني معرفش حد غيرك ولا حتى حبيت حد غير جوزي لما كنت فاكراه راجل وكان راسملي الصورة المزيفة، كنت بدعي إني أشوفك تاني أو حتى ربنا يعوض صبري خير، صدقني يا «محمود» مش ذنبي إني اتجوزت وفشلت في حياتي.

أشعرُ بضربات ثقيلة تُغرز في قلبي، فيحترق في صمت، والفاعل هي تلك التي تنهمر الدموع من عينيها بكل ألم وضعف، فطلبتُ منها أن تهدّئ من

روعها وتتوقف عن البكاء ولو قليلًا وأن تشرب رشفة من عصير الليمون، وبالفعل فعلت ذلك، فابتسمتُ لها وقلت:

- على فكرة عايز أعمل معاكي اتفاق، ماما عايزة تشوفك وأنا عايز أشوف البنوتة الصغيرة، فإيه رأيك؟

فتعجبت وابتسمت تلك التي لا زالت بعض الدموع تهبط على وجهها، فقالت:

- اسمها «جميلة» على فكرة.

- طبعًا لو كان ولد كان هيبقى على اسمي.

فنظرت إليَّ باستنكار، وابتسمت حينما قالت:

- لا، كنت هسميه «آدم» عشان بحب الاسم دا.

ضحكتُ فابتسمت على الفور، وقالت:

- وماما عايزة تشوفني ليه؟!

- يعني، عايزين حد ييجي يركبلنا أنبوبة البوتجاز.

- لا والله!

- أكيد عشان عايزة تتعرف عليكي يا «بسمة»!.

فلمحتهما قادمين من بعيد يبتسمان ويضحكان، وما أن جلسا معنا من جديد حتى قلت لهما:

- على فكرة أنتوا كلكم معزومين عندي على الغدا.

فقال ذلك الأحمق الذي ربما قد عادت له الحرية وأصبح شخصاً منتجاً يعرف كيف يتحاور ويتناقش مع الجنس اللطيف:

- أحلى خبر والله، ياااه هاكل من إيد الحاجة.

ثم نظرتُ إليها وقلت:

- متنسيش تجيبي «جميلة» معاكي عشان عايز أشوفها بجد.

- على فكرة أنا لسه مقولتلكش أنا موافقة ولا لأ وظروفي هتمشي إزاي.

- لا هتوافقي وهتيجي وهتجيبي القمر اللي قاعد جنبك ده معاكي.

فخجلت ونظرت تلك الصغيرة إلى أختها الفراشة بوجهها البشوش، وقالت:

- بقالي فترة كبيرة مشوفتكيش مبتسمة كده يا «بسمة»!

فابتسمت وأدارت وجهها عنا حتى لا نراها، ثم قالت «علا» بصوتها الجميل العذب:

- متقلقش، أنا هجبهالك.

وانطلقنا جميعًا كي نذهب في سلام، ولكنني كنتُ في دوامة من التفكير والإرهاق، فكيف يُعقل بعد كل تلك السنوات أن تحتفظ برسائلي بل والقفاز الذي أهديتها إياه في يوم كان شديد البرودة؟!، وكيف لها أن تتذكر تلك التفاصيل الدقيقة التي حدثت بيننا مثلما أتذكرها على الرغم من أنها قد تزوجت؟!، بل لا تعترف بزواجها منه وتصفه بالمقيت المتخاذل الذي لم يحقق لها شيئًا بالحياة، بل جعلها تخسر الكثير والكثير، وكيف لي أن أتوق شوقًا لرؤية ابنتها الصغيرة التي بكل تأكيد ستكون جميلة مثل أمها، ولكن ماذا لو كانت تشبه أباها وتكتسب الكثير من ملامحه ورائحته، ولكنها بلا ذنب، فمن كانت تريد أن تعيش في كنف والدها رماها ولم يسأل عنها بل لم يُرِد رؤيتها وإنجابها إلى الحياة من الأساس، ولكن ماذا عن...

يا إلهي، أريد أن ينتهي ذلك الكابوس على حلم جميل!

- «محمود»، يا «محمود» أنت سامعني؟

كان ينادي ولم أكن بسامع، وحينما التفتُ له قال:

- بجد مش عارف أشكرك إزاي على اليوم الجميل ده.

فعدتُ إلى الشخص الذي يمرح ويضحك لا أن يفكر ويحزن، وقلت له:

- المهم بس تكون عملت حاجة ومتكونش ضربت لخمة وبوظت الدنيا.

- وأنت تعرف عني كده؟!

ضحكتُ، ثم حاولت أن أعرف كيف يراها وماذا حدث بينهما، فقال بكل سرور وحب:

- زي القمر ما شاء الله وكلامها رقيق جدًا، وعرفت كمان إن في حد في حياتها إتعرفت عليه عن طريق صاحب والدها بس مكنتش مرتحاله ومحصلش نصيب.

- يعني الجو مناسب أهو والسكة فاضية الحمد لله، طمني هتتقابلوا إمتى تاني؟

- لا متفقناش على دي.

- أها.. خدت رقمها وهتبقوا تتكلموا وتتفقوا بعد كده؟

- تصدق نسيت أخد رقمها.

لله الأمر من قبل ومن بعد، فهذا الكائن سيجعلني أجن في يوم من الأيام، ولكن لا يهم، سنجتمع قريبًا وسنحكي عن كل ما يتبادر في أذهاننا، ولكن ما يقلقني الآن وما يثير خوفي هو حديثي مع والدتي وكيف سيكون رد فعلها حينما أعرض عليها الأمر، ولكنني قد اتخذت قراري وبإذن الله سيكون على صواب.

عدتُ إلى منزلي في خلسة، ولكنها أحست بي وقامت من على فراشها لتصطدم معي، وبعد السلامات والمقدمات المعهودة، حاولت أن تعرف أين كنت ولِما تأخرت كل هذا الوقت ولِما لم أجِب على هاتفها، وحينما قلت لها أين كنت، قالت بكل انزعاج:

- «بسمة» تاني يا «محمود»!، مش اتفقنا إنك هتتكلم مع «مي» وتحاول تتعرف عليها أكتر؟!

- أنا عزمتها هي وبنتها وأختها ييجوا يتغدوا عندنا كمان يومين.

- بتقول إيه؟!

لم تجعلني أتفوه بحرف واحد، وقالت بكل غضب:

- مش هستضيفهم يا «محمود» ولا هياكلوا هنا.

فابتسمتُ لها ثم اقتربتُ منها وأمسكت يديها وقبَّلتهما بكل لطف، ثم قلت لها بكل هدوء:

- ماما الكرم كله متقولش كده، وأنا عارف إنك هتقومي بضيافتهم على أكمل وجه.

فأبعدت يديها عني، وقالت بصوتها العالي بعض الشيء:

- لا يا «محمود»، لحد هنا وكفاية، أنا استحملتك كتير وقولت مسيرك تعقل وتعرف الأفضل ليك، لكن لأ، أنت رايح في سكة تانية خالص، عايز تتجوز ست مطلقة يا «محمود»!، ليه؟!، ناقصك رجل ولا إيد عشان تعمل كده؟!، ليه تدخل دنيا وفي إيدك واحدة كده؟!، أنت أكيد اتجننت ولا هي عملتلك عمل وأنت مش واخد بالك.

لم أنطق بحرف، وتركتها ترمي ما في جعبتها حتى هدأت قليلًا، فقلتُ لها:

- أنا مقولتش إني هتجوزها يا ماما، أنا هعتبر المقابلة دي لفت نظر مثلاً، جلسة عمل، غداء صداقة، كده يعني، عشان تشوفيها وتقوليلي رأيك.
- رأيي أنت عارفه من دلوقتي يا «محمود» ومش هيتغير، أنا عمري ما فرضت عليك حاجة بس المرادي هقولك لأ، ولا يا ترى «دنيا» أثرت على عقلك فاتجننت!.

لم أحزن حينما قالت اسمها ولم أغضب، وكأنني قد اكتفيت منها ولم تعد حتى في ذاكرتي، فتعجبت والدتي من هذا، بل بعد أن رمت اسمها حزنت من فعلتها تلك، وتأسفت بعينيها عن ذلك، ولكنني لم أبدِ للأمر اهتماماً، واقتربتُ منها لأعرض عليها فكرتي لعلها تهتدي لِما أريده:

- تفتكري يا ماما لو مكونتش بخلف و...

فقاطعتني، وقالت بكل ألم:

- بعد الشر عليك، ليه بتقول كده!

فأكملتُ لها قائلًا:

- افرضي بس، وكانت «جميلة» دي هي أملي ومناي بالحياة، وساعتها مخترتهاش زي ما أبوها عمل وباعها بكل رخص وقذارة، تفتكري مش هندم يا ماما؟، تفتكري مش هتجنن فعلًا؟، وبعدين خدنا إيه من اللي حبناهم بكل حب وشغف وشوق!، مش يمكن لما نجرب اللي بيحبنا نكسب؟، أنا مش طالب منك حاجة غير إنك تشوفيها، ممكن؟

نظرت في عيني بشدة، ثم نظرت إلى أسفلها بانكسار وقالت:

- ربنا يسهل يا «محمود».

فقبَّلتها على رأسها، وطلبتُ منها أن تحتضنني بشدة، ففعلت ذلك على الرحب والسعة وعادت إلى فراشها، وعدتُ أنا بالمقابل إلى فراشي كي أنام كالموتى السائرين حتى لا أشعر بشيء.

"مش اتفقنا إنك هتتكلم مع «مي» وتحاول تتعرف عليها أكتر"

تلك الجملة ظلت تداعبني كثيرًا في الصباح الباكر، ولكنها ذات تأثير ضئيل مقارنة بما يحدث معي، وفي حقيقة الأمر قد سألتُ نفسي هذا السؤال من قبل، ولكن إجابتي لم تكن كافية، ولأنني لم أَنَم جيدًا، فقد حان وقت العبث واستدعاء الخيال بجانب مرض التفكير الزائد عن الحد.

نعم، أحببتُ تفاصيلها الجميلة الرقيقة، ولكن يظل لها ماضٍ سيطاردها ما حييتْ، فتلك اللمعة التي كانت بعينيها تجاهه تنهي كل شيء، وتلك البسمة التي صاحبتها حينما تفاهمتُ موقفها بل ساعدتُها على تحقيق ما تريده وترغب فيه، وإن كنتُ قد آثرتُ دهشتها وشكرتني على تلك اللافتة الجميلة، فهذا لا يكفي في هذا الزمن العجيب، فزواجنا ممن نحب يستغرق مشواراً طويلاً للغاية، به الكثير من المعوقات والحزن والشدة، ولكن يبقى الدافع قائماً وحاضراً إذا أراد كلٌ منهما الاستكمال رغم كل شيء، فالمرأة الوفية عملة نادرة للغاية في زمن أصبح الحب فيه سلعة تجارية لزواج بائس مبني على الماديات وأصحاب العائلات الرفيعة، ولذلك لم يعد لي طاقة في المعافرة من أجل شخص ما، حتى وإن كان بداخلي حنين له، فالقلوب التي جُرحت لا تلتئم سريعًا، بل تحتاج إلى دواء مكثف يساعد في إخراج تلك الحالة من الصميم، ولأن «مي» تحتاج

إلى ترميم مثلي، فلن نساعد بعضنا البعض طالما لم تنتهِ مواضيعنا كما يجب أن تنتهي بالحسم والحتم، وبالتالي الماضي حتمًا سيعود ولن يرحم أحدًا.
"ولا يا ترى «دنيا» أثرت على عقلك فاتجننت".
"إدّي لنفسك الفرصة إنك تنجرح وتبكي عشان تفوق، طول ما أنت متماسك كده أو فاكر نفسك متماسك أصلًا عمرك ما هترتاح، ساعات بنحتاج للحزن عشان نطفي نار الصمت القاتل الجارح جوانا، اللي قدامك دا ياما بكى لوحده على أبسط الأشياء وأثقلها، يا «محمود» ساعات بنحتاج للحزن عشان كمية القسوة اللي استحملناها في حياتنا وعمرنا ما بكينا وقتها، لحد ما روحنا البيت وقفلنا على نفسنا عشان تنزل دموعنا براحتها وتغسل كل الألم دا".
لا يا والدتي العزيزة، لم أجن ولم يختل عقلي بعد، فهي لا تستحق حتى أن تهبط دمعة واحدة مني على فراقها، بل كل ما هنالك هو أنني كنتُ أحتاج وبشدة إلى الحزن والبكاء الكثير على حالي حتى أهدأ وأبدأ من جديد، فكبريائي كان يمنعني من أن أحزن على فتاة كمثل هذه التي تلهث وراء المال، فظلت نقطة ضعفي وقلة حيلتي إلى أن جاء «حسن» وأعطاني الحل الأمثل لتلك الأشياء، ولذلك كان نسيانها أبسط من الدخول في معركة مع طفل أحمق وأنت رجل مفتول العضلات، فمن يفر ويهرب رغم حبك له، لا ينبغي لنا أن نتذكره من الأساس، بل يصبح من العدم، ليس له وجود بالحياة، ولأن الوقت يمضي ولا ينتظر ولا يلتفت إلى الماضي، سأمضي أنا الآخر منتظرًا عوض الله الذي سيُنسيني ما فقدته من كثرة جماله وحلاوته.

****

القطعة الكاملة

كانا ينظران إلى بعضهما البعض بكل شغف وحنين، وكأنهما كانا ينتظران ذلك اليوم أكثر مني ومن «بسمة»، فتلك النظرات والابتسامات والمداعبات تُنبىء بقدوم حب سيصل إلى أقصى حدوده وسيُكتب في بداية صفحاته، رُبّ صدفةٍ خيرٌ من ألف ميعاد، وحينما نظرتُ إلى «بسمة» نظرة هادئة خادعة كي تلمحهما في صمت وترقب، هزَّت رأسها بالإيجاب وابتسمت بخجل مؤكدة على تلك الحالة المرتفعة المنتشية بين أختها وصديقي، ولكنني كنت أركز بالأكثر على تلك الفتاة الجميلة التي لم تبلغ السابعة بعد، بضحكتها فائقة الجمال وخديها اللذين يجعلانك تريد وبشدة أن تأكلهما أكلًا، وزينتها كوردة مزدهرة في بستان لا يملكه أحد سواها، وما لفت نظري بالأكثر هي تلك الفرحة بعيني والدتي، فقد كانت تلعب معها كثيرًا وتغني لها ولم تأكل معنا إلا قليلًا حتى تشبع منها أكبر قدر ممكن، فأحسستُ أن خطتي قد نجحت، فهي تعشق الأطفال، فما بالك لو كانت بنت «بسمة» التي تشبه عيناها الواسعتان وخداها الأحمران الفراولة الطازجة، فهي تمتلك الكثير منها وهذا ما أردته وبشدة.

حينما أنظر إليها، أجد في عينيها الكثير والكثير من الحزن والألم والضعف المدفون في ساحات الماضي الموجع، ولكنها رغم ذلك لا تكف عن الابتسام ولا ينسحب أو ينفلت منها أبداً، ولا أعلم حتى الآن هل أحبها بحق أم هو مجرد إشفاق عليها؟! ولكنني أحب أن أراها وأحادثها وأنظر في عينيها وأداعبها وأمرح معها، نعم، أحب كل هذا وأكثر.

- إيه رأيك في «جميلة»؟!

ناولتها ذلك السؤال حينما كنا نحضّر سويًا بعض الحلويات لنقدمها إليهم، فقالت بكل حب وسعادة:

- إيه الطعامة دي ما شاء الله، خدت قلبي بسرعة، يلا نخلص بسرعة خليني أروح أكمل لعب معاها.

يا له من جواب هدَّأ كثيرًا من روعي ومنحني الثقة في أن أناولها السؤال التالي، حينما قلت لها بكل خفة:

- طب و «بسمة»؟

تركت ما بيدها ثم نظرت إليَّ وقالت:

- ملامحها مكسورة يا ابني، شكلها شافت كتير في حياتها، ربنا يكرمك ويوفقك للاختيار الصح.

والدتي لم تغير رأيها هكذا سريعًا بسبب «جميلة» أو ملامح «بسمة» المنكسرة فحسب، بل حينما علمت أن «عمرو» قد عاد من جديد إلى «مي» بعدما لم تعد تأكل لمدة تجاوزت الأسبوع ونُقلت إلى المشفى، وهناك شرعت بالانتحار ولكنهم لحقوا بها في الوقت المناسب، وهذا ما جعلها تفكر في حديثي وتبحث في مغزاه لعلها تفرح بي عما قريب.

أخذتُها من يديها وذهبنا إلى الشرفة كي نتحدث ونتكلم بكل هدوء، وظل «حسن» برفقة أختها ووالدتي التي كانت تلعب وتلهو مع تلك الفتاة الصغيرة، وما أن جلسنا حتى عزمتُ عليها أن تتذوق تلك الهريسة التي هي من صنع والدتي، فقالت بابتسامة تلك الجملة المعهودة التي تنطق بها كل فتاة في تلك المواقف كي تنبهر بها وبمحافظتها على جسدها وبعقلها الواعي لتلك الأشياء:

- الرچيم هيبوظ كده يا «محمود».

هي لا تحتاج لأن تخفف من وزنها إلا القليل كي تمحو تلك الجوانب البارزة بعض الشيء، فهي رشيقة للغاية ذات جسد مشدود بعناية وطلة أنيقة كقطعة الشيكولاتة التي تسعدك وتحسن مزاجك.

- إنتي مش محتاجة رچيم أصلًا يا «بسمة».

هن يحبن تلك الجملة للغاية، فلِم لا نضعها أمامهن!.

أخذت قطعة صغيرة من تلك الحلوى، ثم قالت بكل فضول وترقب:

- عايزة أسمعك يا «محمود».

فبدا وجهي كعلامة استفهام كبيرة، فأكملت قائلًا:

- في كل مرة أنا اللي بتكلم والوقت بيفوت ومبلحقش أعرف عنك حاجة.
- عايزة تعرفي إيه؟
- كل حاجة يا «محمود»، وإن أمكن لو قولتلي من ساعة ما كنا في تانية إعدادي لحد دلوقتي.

ضحكتُ كثيرًا فابتسمت، ثم قلتُ لها بكل سعادة:

- بمناسبة تانية إعدادي، أنا عندي ليكي مفاجأة.

ثم ذهبتُ إلى غرفتي في ترقب وسعادة من جانبها، حتى عدتُ إليها كي أجدها في حالة شغف وتوتر شديد، وما أن جلستُ أمامها من جديد حتى طلبتُ منها أن تفتح يدها بخفة ففعلت فرميتُ بداخلها علبة عصير «بست»، فقالت بكل تعجب:

- إيه ده؟

فأخذتها منها ثم قلبتها يمينًا ويسارًا، وقلتُ لها:

- دي علبة العصير اللي جبتهالي من مصروفك وفضلت محتفظ بيها لحد دلوقتي، رغم إني فكرت أرميها في مرة من المرات لما مجتيش المدرسة وعرفت إنك نقلتي أوراقك ومشيتي.

أخذتها مني على الفور وظلت تنظر إليَّ في تعجب وحيرة وشغف، ولم تنطق بحرف واحد حتى أكملتُ لها قائلًا:

- بعد ما ورتيني الجوانتي والرسالة الأولى اللي كتبتهالك رجعت البيت وفضلت أدور عليها لأكتر من ساعة لأني فاكر إني محتفظ بيها بس نسيتها ونسيت مكانها خالص، لحد ما جه وقتها ولقتها من تاني.

ظلت عاجزة عن النطق، وبدأت عيناها تغرغر بالدموع، فقلتُ في قرارة نفسي، كيف لتلك العلبة البسيطة أن تصنع كل هذا الكم من السعادة؟، فهي لا تساوي شيئًا، ولكن قد يكمن هذا الدافع وتلك السعادة في احتفاظي بها كل هذه المدة، وما أن وجدتها في حالة ذهول هكذا حتى ناولتها الهدية الثانية وهي تلك الرسائل التي كانت تكتبها لي بخطها

الجميل الواضح، فتلك أيضًا احتفظت بها إلى وقتنا هذا داخل تلك الحقيبة السوداء التي كانت تأكلها الأتربة فوق الدولاب.

أخذت تفتح كل جواب على حدى لتقرأ وتبتسم وتضحك بصوت عالٍ، ثم سقطت منها رغماً عنها تلك الدموع التي كانت تشد عليها أن تُحبس وألا تهبط، ولكنها سقطت فوق علبة العصير فمسحتها سريعًا ثم أخذت منديلًا من جيبها ومسحت دموعها وقالت بكل راحة وهدوء وهي تبتسم وتتبلور جمالًا:

- شكرًا يا «محمود»، بجد شكرًا من كل قلبي.

رقتها وجمالها يدفعاني إلى أن أقوم من مقعدي هذا وأحتضنها بكل قوة، ولكنني سأكون بعنوان متحرشٍ بالشرفة، وما أن هدأت قليلًا حتى قلت لها براحة نفسية لم أعهدها من قبل:

- فاكرة آخر جملة في أول جواب كتبتهولك كانت إيه؟

نظرت إليَّ بعينين واسعتين ثم قالت بكل شغف:

- فاكرة طبعًا.

- كانت إيه؟

فابتلعت ريقها وقالت:

- بحبك يا «بسمة».

- بس دي كانت من ١٦ سنة تقريبًا، أما دلوقتي فعايز أقولك...

فاقتربتُ منها أكثر وأمسكتُ بيديها بكل لطف ثم قلت لها:

- بحبك يا «بسمة».

بكت، نعم بكت بحرقة، ثم قالت:

- بس أنا...
- مش عايز أعرف حاجة.
- لأ، لازم تعرف، أنا مريت بظروف صعبة وقاسية في حياتي ومعنديش استعداد إنك في يوم تسبني، أنا عندي بنت و...
- وبحبها جدًا عشان شبهك.

شددت على يدها جيدًا، وقلت:

- عارف كل ظروفك ومقدر، ويمكن ربنا جعلني سبب عشان أعوضك عن كل حاجة قاسية شوفتيها في حياتك، وبالنسبة لبنتك فإنتي شوفتي ماما بتعاملها إزاي من أول ما شافتها، صدقيني أنا...
- بحبك يا «محمود»، بحبك أوي، أرجوك متسبنيش.

نظرتُ في عينيها بشدة من هول جملتها الأخيرة ثم قبّلتُ يديها بكل خفة، وقلت لها:

- مش هسيبك أبدًا يا «بسمة».

وكأنني كنتُ القشة التي تعلقت بها بعدما غرقت في بحر من المآسي والصعاب، وكأنني كنتُ طوق النجاة بالنسبة لها، فتلك الحالة التي أراها أمامي والمصاحبة لدموع كثيرة تعبّر عن أوجاع قد طالت قلبها المنجرح بضربات الزمان القاسية، ولا تعني سوى أنها تريد أن تستند على عمود متين لتبكي بشدة كي تلتئم من جراحها رويدًا رويدًا ومن ثم تعيش في هدوء وسعادة، فتلك الدنيا متعِبة للغاية، ونظل في شقاء بها حتى ننال الراحة الأبدية، ولكن ربما تكمل سعادتي حينما أُسعد من حولي

وخصوصًا تلك التي أمامي، المنكبة على أمرها ولم تختَر واقعها المرير ولا زوجها اللاآدمي الفوضوي، فقط كل ما كانت تريده هو أن تعيش حياة هادئة مستقرة كبني جنسها، لا أن تُهان وتُحتقر، ولذلك كان عليَّ أن أبحث عن سعادتي بداخلها، ولأنها أيضًا الحب الأول منذ أكثر من ستة عشر عامًا، فلك أن تتخيل ذلك الرقم كما تريد، ولكن النصيب دائمًا ما يحقق المعادلة الصعبة، وما هو مكتوب سنلقاه حتمًا، حتى ولو بعد حين.
دموعها السعيدة كانت تحرك داخلي شيئًا ما، وتدفعني إلى أن أتخيلها بين ذراعيَّ، أداعب خصلات شعرها الناعم الطويل وأقبّلها على وجنتيها ثم أستقر فوق فمها الصغير، ولكني سرعان ما أعود إلى أرض الواقع، ومن هنا أخذتها من يديها وذهبنا لنجلس معهم من جديد، فرأيتُ سعادة واضحة في عينيّ والدتي، تلك التي لم أرَها من قبل هكذا، فكيف عبروا قلبها بتلك السهولة؟!، وتناست ما كانت تقوله لي من رفض تام للموضوع، ومن هنا تيقنت وبشدة أن الأم لا تحتاج سوى الأمان والحب كي تشعر بأن حياتها مختلفة للغاية وجميلة، ولا تحتاج سوى الحديث المريح والكلمات العطرة التي تخرج من القلب إلى القلب بلا شوائب أو حوائط صد، ولا تحتاج سوى أن تشعر براحة وهدوء مع من ستشارك ابنها حياته القادمة، فتلك الأشياء لا تُلام عليها بل لابد أن تتحقق لها مع قبلة على يديها بكل حب وعطف، فكل ما تتمناه في حياتها أن ترانا حكماءَ عظماءَ في نظرها حتى وإن كنا لا نستطيع أن نخدم أنفسنا، فهي المأوى والدافع والحضن الدافئ والوطن.

كان الوطن سعيدًا وينظر إليَّ بدهشة وإعجاب كلما نظرتُ إلى تلك الفاتنة التي اختارها قلبي، تلك السوية التي لم تنزلق وتهبط إلى القاع رغم كل ما تكبدته وشاهدته في حياتها، بل ظلت كما عهدتها من براءة وطفولة، وهذا هو سر تمسكي بها منذ البداية، فالنشأة السليمة لا تُلوَّث مهما حدث معها، ولأن الوقت يمضي سريعًا حينما يكون ممتعًا هكذا، كان عليَّ أن أحكم قراري وألا أضطرب، فجملته لا زالت تعبث بخيالي ولا تهدأ منذ بداية اللقاء. شرعوا في الذهاب ولكن والدتي أبت أن يرحلوا سريعًا هكذا، وأرادت أن تجلس مع «جميلة» أكثر من هذا، بل عرضت عليها أن تتركها ليوم واحد فقط كي تشبع منها وسط سرور وابتسامات من جانبنا، فكان عليَّ أن أجعلها تنظر في عيني مباشرة، ثم في هدوء تام من جانبنا وكأن الزمان قد توقف فجأة كي أقول لها في سعادة تامة وبعد تفكير عميق:

- تتجوزيني؟

"مش شرط تحقق سعادتك بإنك تفرَّح نفسك وبس، ومش مبرر تمشي في نفس الطريق اللي مالوش مؤشرات نجاح واضحة عشان شوفته من الأول فاضي وأمان، ما يمكن الطريق التاني اللي فيه ناس يساعدوك في إنك توصل لحلمك أسرع وأفضل، وصدقني إنك تحقق شغفك في حد وتفرحه، هتحس بإحساس عمرك ما وصلتله ولا حسيته قبل كده".

نعم، أشعر بها الآن.

أشعر بالسعادة الحقيقية.

الفهـرس

القطعة الأولى	١
القطعة الثانية	٤٣
القطعة المفقودة	٦٧
قطعة من الماضى	٨٥
القطعة الكاملة	١٥٥

للتواصل مع الكاتب

facebook.com/FouadOfficial1

facebook.com/HekayatFouad

instagram.com/fouadofficial1